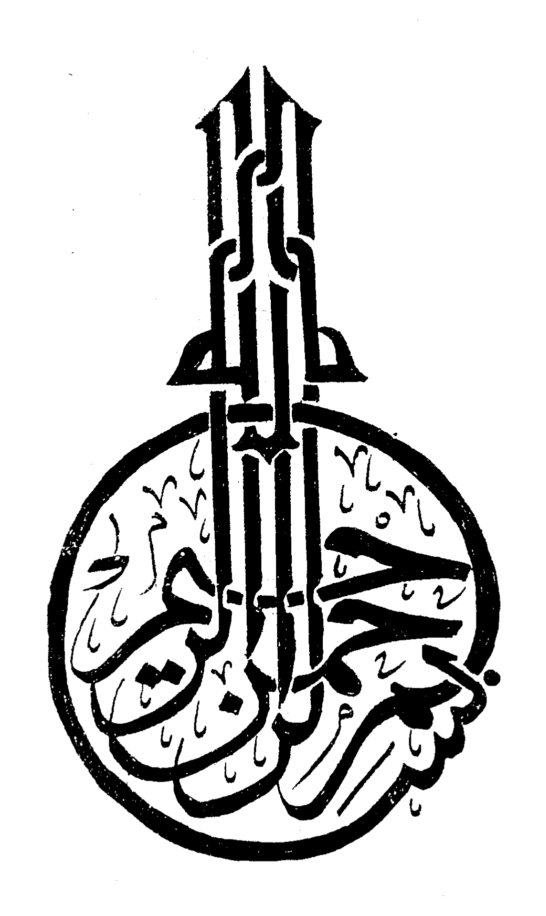
التصوف الاسلامى
منهجاً وسلوكاً

للدكتور
أحمد محمد عبد العال الجغاوى
استاذ العقيدة والفلسفة المساعد
بجامعة الأزهر

الطبعة الاولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه

وبعد ...

فليس ثمة ريب فى أن التصوف علم عميق ودقيق – ومصدر عمقه تعود إلى أن التصوف يشتمل على جانب من جوانب الحياة الروحية فى الاسلام لأنه تعميق لمعانى العقيدة الصحيحة – وتأمل لأحوال الإنسان فى الدنيا ، ومصدر دقته تعود إلى أن التصوف سلوك وعمل ومجاهدة .

والإنسان المسلم رجل نير الذهن والقلب ، حاد البصر والبصيرة جميعاً -- تتعانق فكرته وعاطفته فى معاملته لله تعالى ومعاملته مع الناس .

وهذه الصفات مشتقة من طبيعة الإسلام نفسه – فهو دين يبنى عقائده على أساس من النقل والعقل معا .

وإلى جانب هذا فالأسلام دين عبادة تقوم على سلامة النية وصدق القلب والتجريد من هوى النفس .

وسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أسوة وقدوة نقتدى بهافى جميع حياتنا السلوكية والعملية والأخلاقية .

والتصوف الإسلامى فى نشأته صدر من طبيعة الإسلام ومصدريه الأساسيين القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم

لأن المتأمل فى هذين المصدرين يدرك أنهما الطريق إلى ايقاظ الضمائر وأثارة العقول بما تعرفه من تزكية النفس بالأخلاق الكريمة والسلوك الحسن .

وهنا ينبغى أن نشير إلى خبث المستشرقين وبعض الباحثين الذين يميلون إلى اعتبار التصوف الإسلامى يصدر من مصادر غير اسلامية .

ذلك أن هؤلاء ومن على شاكلتهم يحاولون وضع التصوف خارج دائرة الإسلام الصحيح كما أنه فى نفس الوقت يضع المسلم فى موضع المضطر إلى مهاجمة التصوف بصفة عامة .

لهذا فقد حاول الصوفية المسلمون أن يقوم علم التصوف الإسلامى على أسس علمية أخلاقية معتمدين فى ذلك على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين - وماتنطوى عليه حياتهم الروحية من أقوال وأفعال وأعمال تعتبر منبعا أصيلا ومصدراً حقيقيا لهذا الجانب العملى الأخلاقى فى التصوف الإسلامى .

ولهذا يتميز هذا العلم بمنهج اصطنعه أصحابه فى رياضتهم ومجاهداتهم العملية وأذواقهم النفسية ومشاهداتهم القلبية .

ولهذا فقد دعت الحاجة إلى دراسة هذا العلم ليكون أمره واضحاً لمن أراد سلوكه ومنهجاً لمن أراد طريقه .

وبهذا نستطيع أن نضيف عنصراً من عناصر النمط الثقافى الدينى الذى نحتاجه فى هذا الخضم المائج الذى نعيش فيه - فى عصر سادت فيه عبادة المادة - وشاع فيه الالحاد والتحرر من العقائد السليمة التى جاءت من عند الله تعالى .

فقد توالت البحوث الدالة على تهافت المادية وفشلها فى إصلاح الأخلاق وعلى هذا فلا حل لمشكلة الأخلاق إلا بالعودة السريعة إلى التربية الروحية والأخلاقية صاحبة التأثير الفعال - وهذا مانجده فى التصوف الإسلامى القائم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أما هؤلاء الذين يأخذوا عن التصوف إلا الاسم فقط - فربما يكون هذا سببا إلى ما افتراه البعض من إدعاءات عارية عن الصحة تجعل المفتون بها من جملة الطاعنين على هذا العلم فإذا كان قد دخلت على أفكار القوم شبه وأباطيل وإدعاءات تبعده عن روحه واساءة فهم مقاصده ٠

إلا أنه من شأن الدراسة الواعية التمييز بين الصحيح والزائف والأصيل والمدسوس ثم تختار ماكان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ٠

لكل هذه الأعتبارات وغيرها استعنت بالله تعالى أن أدرس هذا الموضوع متوخيا فيه البسط والتيسير مع الرجوع إلى القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم مراعاة لمنهج البحث العلمى السليم ٠

ولا ابرىء نفسى من الخطأ إذ الكمال لله وحدة ولاعصمة إلا للأنبياء - فأنا بحاجة إلى عون المخلصين من أبناء ديننا الحنيف - والله يقول الحق وهو الهادى الى الصراط المستقيم ٠

إنه نعم المولى ونعم النصير ٠

الفقير إلى عفو ربه الغنى

احمد محمد عبد العال الجغاوى

المبحث الأول

التصوف الإسلامي في مهده الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة الرسول صلى الله علية وسلم وأفعاله وأقواله

من الثابت تاريخيا أن حياة الرسول صلى الله علية وسلم قبل البعثة كانت عامرة بوقائع لها قيم روحية عميقة أثرت كل التأثير على تهيئة قلبه ونفسه وروحه حتى أصبح مستعداً لاستقبال الوحى .

فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يذهب إلى غار حراء بعيداً عن ضجيج الحياة المادية وعن عادات الحياة العربية الجاهلية - كان يذهب إلى الغار ليتعبد فيه على ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام - وفى غار حراء وعلى جبال مكة آتاه الوحى وأخذ عليه ميثاق النبيين .

وكانت هذه الحياة قد كونت شخصية الرسول صلى الله علية وسلم تكوينا خاصاً مهدت له مكانة ممتازة بين كفار قريش حتى سمي بالأمين - ولايخفى علينا حادثة الحجر الأسود وتنازع القبائل فى الحصول على شرف حمله ووضعه فى مكانه المناسب فى الكعبة المشرفة حتى جاء صلى الله عليه وسلم وأنقذ الموقف برأيه السديد - كم كان لهذا الموقف من أثر نفسى على مشايخ القبائل وعلى تأكيد مكانة محمد صلى الله عليه وسلم فى نفوس العرب وغيرهم .

إن الحياة الروحية هى الحياة التى يخضع فيها الإنسان لألوان مختلفة من مجاهدة النفس وتصفية القلب وتنقيته من أدران الشهوة والهوى وقطع العلائق المادية التى تفسد على الأنسان صلته بربه .

لقد اتيح لمحمد صلى الله عليه وسلم صفاء الروح ونقاء السريرة حتى صار مستعداً

للوحى وأهلا للرسالة – حينئذ هبط عليه الملك الذى يضمه ويرسله عدة مرات وهو فى كل مرة يأمره بأن يقرأ ومحمد صلى الله عليه وسلم يجيبه « ما أنا بقارىء » حتى أمره الملك أخيراً أن « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » (١)

هذه القراءة هى بداية عهد جديد فى حياة محمد صلى الله علية وسلم وفى حياة الأمة العربية بأسرها بل الإنسانية جمعاء – وهى حياة اشتملت على أسمى معانى الجهاد والصبر وأرقى مبادىء الأخلاق وأقوى دعائم الإيمان واليقين (٢)

وكان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم هو خلق القرآن الكريم ، فقد سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » وهذا يعنى : أن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم أساس كل حياة روحية تسير على هدى من القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله علية وسلم – فقد وصف لنا أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقل البعير ويعلف الناضح ويقم البيت ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ويطحن معها إذ هى أعيت ، وكان لايمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق الى أهله ، وكان يصافح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئا ، وكان لايرد من دعاه ، ولايحقر مادعى اليه ، ولو الى حشف التمر وكان لين الخلق ، كريم الطبع ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه بساماً من غير ضحك ، مخزوماً من غير عبوس ، متواضعا من غير ذلة ، جواداً من غير سرف ، رقيق القلب ، دائم الأطراق ، رحيما بكل

---

(١) سورة العلق الآية رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥

(٢) الدكتور محمد مصطفى حلمى – الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٨

مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ولا مد يده إلى طمع (١) ومما لاجدال فيه أن هذا الخلق النبوى الكريم كان له أكبر الأثر فى تربية المجتمع الاسلامى وتأكيد الحس الاجتماعى وتكوين الشخصية الفردية تكوينا سليما - فقد شعر الفقراء والعبيد بانسانيتهم وكرامتهم وحياتهم داخل هذا الدين الجديد وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم أحينى مسكيناً وتوفنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين ، وإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة » (٢)

وقال الله تعالى لنبيه الكريم موضحا ماينبغى له فى موقفه من الدنيا « ولاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » (٣)

وقوله تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (٤)

وغير ذلك من الآيات والآحاديث التى تدل على حياة محمد صلى الله عليه وسلم الروحية وكمال خلقه ولذلك يقول الطوسى وكان من كمال خلقه صلوات الله عليه ، الحياء ، والسخاء والتوكل ، والرضا ، والذكر ، والشكر ، والحلم ، والصبر ، والعفو ، والصفح ، والرأفة ، والرحمة والمداره ، والنصيحة والسكينة والوقار ، والتواضع والأفتقار ، والجود والسماحة ، والخضوع ، والقوة ، والشجاعة ، والرفق ، والأخلاص والصدق ، والزهد

---

(١) السراج الطوسى - اللمع ص ١٣٦
(٢) الحديث رواه الحاكم - فيض القدير جـ ٢ ص ١٠٣
(٣) سورة طه الآية رقم ١٣١ - ١٣٢
(٤) سورة الكهف الآية رقم ٢٨

والقناعة ، والخشوع ، والخشية ، والتعظيم ، والهيبة ، والدعاء ، والبكاء والخوف والرجاء، والليادة ، واللجأ ، والتهجد ، والعباده والجهاد والمجاهدة » (١)

وغير ذلك من الصفات الطيبة التى تدل على أخلاقه الشريفة وأقواله الكريمة وأحواله العظيمة وصفاتة الطيبة التى هى الاسوة الحسنة والقدوة الطيبة المباركة .

كما قال ربنا تبارك وتعالى « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » (٢)

وكان الرسول صلى الله علية وسلم يعمل على تعميق الجانب الروحى فى حياة المسلمين – وسرعان ماظهرت طائفتان فى المدينة ، كان لهما الأثر الأكبر فى الحياة الإسلامية فيما بعد :

أما الطائفة الأولى: هى طائفة القراء من الأنصار – كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل ، بل كانوا يتهجدون ويدرسون القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ويصفهم أبو نعيم الأصفهانى بأنهم كانوا الطبقة الأولى من النساك والعارفين والعباد الذين انقرض معظمهم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يتدنسوا بما فتح الله عليهم من زهرة الدنيا افتتانا – وقد وصفهم سيدنا عبدالله بن مسعود بقــوله « ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون وبنهاره إذا الناس يفطرون ويحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخلطون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكياً محزونا ، حكيما ، عليماً سكينا ، ولاينبغى لحامل القرآن أن يكون جافيا ولاغافلا ، ولاصخابا ولاصياحا

(١) الطوسى – اللمع ص ١٣٩
(٢) سورة الأحزاب الآية رقم ٢١

ولاحديداً » (١)

وكان للقراء دور هام فى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم – وكان نداؤهم فى الحروب « ياأصحاب القرآن زينوا القرآن بالفعال » وقد استشهد الكثير منهم فى حروب الردة ، ثم انتقلوا بعد الفتوح يعلمون الناس القرآن ويعقدون الحلقات فى المساجد (٢)

أما الطائفة الثانية : التى تمثل حياة الزهد فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم – فهى طائفة أهل الصفة ، وقد حاول بعض مؤرخى التصوف أن ينسبوا التصوف اشتقاقاً اليها – وقد بنى الرسول صلى الله عليه وسلم : الصفة فى ظلال المسجد لهؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار وقد عاش أهل الصفة عيشة زهد وتقشف – يقضون أوقاتهم فى قراءة القرآن وتدبره ، وفى الذكر والتفكر وكانوا من خاصة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تبارك وتعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهة ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (٣) يقول الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية : أى اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء – يقال أنها نزلت فى أشراف قريش حين طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحده ولايجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة فنهاه الله عن ذلك فقال « ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » – وأمره أن يصبر نفسه فى

(١) أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأوليا جـ ١ ص ١٢٣ – ١٣١ – طبعة القاهرة ١٩٣٢ م
(٢) الدكتور النشار نشأة الفكر جـ ٣ ص ٨٣
(٣) سورة الكهف الآية رقم ٢٨

الجلوس مع هؤلاء فقال « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » – وقوله تعالى « ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » قال ابن عباس رضى الله عنه ولاتجاوزهم إلى غيرهم يعنى تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة « ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » أى شغل عن الدين وعبادة ربه « وكان أمره فرطا » أى أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ولاتكن مطيعاً له ولامحباً لطريقته ولانغبطه بما هو فيه (١)

هذا وقد ذكر الحديث المشهور عن رسول الله صلى الله علية وسلم « رب أشعث أغبر ذى طمرين ، لو أقسم على الله لأبره – منهم البراء بن مالك « وقد كان البراء بن مالك أحد أهل الصفة » (٢)

ويقول الدكتور النشار « وسيتخذ الصوفية بعد هذا الحديث ويعتبرونه من سمات الصوفى الكامل – كما أن أحدهم – وهو وابصة بن معبد الجهنى حفظ لنا الحديث المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – والذى يعتبر جوهر التصوف » (٣) وهو «ياوابصة جئت تسألنى عن البر والأثم : ياوابصة استفت نفسك : البر ما اطمأن اليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والأثم ماحاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن افتاك الناس وأفتوك » (٤)

---

(١) الأمام ابن كثير – تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٨٠ – ٨١ – مكتبة دار التراث القاهرة دون تاريخ
(٢) أبو نعيم حلية الأولياء جـ ١ ص ٣٢٧ – ٣٤٧
(٣) الدكتور النشار نشأة الفكر جـ ٣ ص ٨٤
(٤) أبو نعيم – حلية الأولياء جـ ٢ ص ٤

من حياة الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين :

لقد غرس الرسول صلى الله علية وسلم عقيدة التوحيد الخالصة فى نفوس صحابته رضى الله عنهم أجمعين - لذا فقد كانت حياة الصحابة حياة الخوف والرجاء ويقول الدكتور مصطفى حلمى وحياة الصحابة كحياة النبى صلى الله عليه وسلم حافلة بالأقوال والأحوال التى تدل دلالة واضحة على زهدهم وورعهم وتقشفهم - وغير ذلك من مظاهر الأقبال على الله والاعراض عن الدنيا ، وكلها أمور لايستطيع أن يغفلها أو ينكرها الباحث عندما يريد أن يتبين مقومات الحياة الروحية فى صدر الإسلام فلقد كانت حياة أبى بكر رضى الله عنه تسير على نهج القرآن متأثراً بآياته - فنراه يختار من بين آيات القرآن الكريم ثلاث آيات تلمح فيها بعض تعاليم التصوف المعتدل فقد روى عنه أنه قال : ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل اشتغلت بها عما سواها احداها : قوله تعالى « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ... » (٢) فعلمت أنه إن أرادنى بخير لم يقدر أحد أن يرفع عنى غيره وإن أرانى بشر لم يقدر أحد أن يصرف غيره - والثانية قوله تعالى « اذكرونى اذكركم ... » (٣) فاشتغلت بذكر الله تعالى عن كل مذكور سوى الله والثالثة قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ... » (٤) فوالله ماهممت برزقى منذ قرأت هذه الآية (٥)

بهذه الآيات الثلاثة لخص لنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه التصوف الإسلامى وغير

---

(١) الدكتور مصطفى حلمى - الحياة الروحية ص ٢٧

(٢) سورة يونس الآية رقم ١٠٧

(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٥٢

(٤) سورة هود الآية رقم ٦

(٥) الطوسى - اللمع ص ١٧١ - ١٧٢

ذلك مما ورد عنه رضى الله عنه ٠

وأقبل عصر عمر رضى الله عنه واندفع المسلمون إلى بقاع الأرض وملكوا كنوزها وانهمر عليهم سيل الغنائم وأرسل عمر رضى الله عنه الصحابه إلى الأمصار المختلفه يعلمون أهلها القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله علية وسلم ٠

يقول صاحب اللمع وأما عمر رضى الله عنه . فإنه قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لقد كان فى الأمم محدثون ومكلمون فإن يك فى هذه الأمة فعمر رضى الله عنه » سئل بعض أهل الفهم عن المحدث فقال : أعلى درجات الصديقين ، ودلائل ذلك ظهرت عليه وهو ماذكر عنه أنه كان يخطب فصاح ، فقال فى وسط خطبته :

يا سارية الجبل – وسارية فى عسكر على باب نهاوند فسمع صوت عمر رضى الله عنه وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو – وقيل لسارية كيف علمت ذلك ؟ فقال : سمعت صوت عمر رضى الله عنه يقول يارسارية الجبل الجبل ٠

ويلخص لنا عمر رضى الله عنه الطريق الصوفى الإسلامى أنه قال : وجدت فى العبادة أربعة أشياء : أولها : أداء فرائض الله تعالى ، والثانى : اجتناب محارم الله تعالى والثالث : الأمر بالمعروف ابتغاء ثواب الله تعالى ، والرابع : النهى عن المنكر اتقاء غضب الله تعالى (١)

وغير ذلك مما أثر عن الفاروق رضى الله عنه والذى يدل على تمسكه بما فرضه الله عليه خوفاً من غضب الله وطمعا فى ثوابه وجنتة ٠

---

(١) الطوسى اللمع ص ١٧٣ – ١٧٥

وهكذا كانت حياة الصحابة والتابعين الذى أخذوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتدوا بأقواله وأفعاله فى عبادته وقيامه بالليل وفعلوا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى (١) يمكن أن نتخذ بداية الحياة الروحية فى الإسلام من حياة النبى وأصحابة ، وكانوا يأخذون به فى أنفسهم من زهد فى الدنيا واعراض عن زخرفها وجاهها ، واقبال على الله عز وجل بقلوبهم ، وجهاد فى سبيل الله بكل ما أوتوا من قوة الإيمان وحرارة اليقين ، فتحنث محمد صلى الله عليه وسلم الذى كان يقضى فيه الإيام والليالى وحيدا معتزلا للناس فى غار حراء قبل أن يهبط عليه الوحى ، وحياة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم جميعاً ، وسيرة بلال الحبشى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى ، وسلوك أبى بن كعب وتميم الدارى وأبى ذر الغفارى وحذيفة بن اليمان ومصعب بن عمير - وما كان يأخذ به أولئك وهؤلاء وكثير غيرهم من الصحابه أنفسهم من تعبد وتزهد وتقشف ومجاهدة النفس ومعاندة للشيطان وجهاد فى سبيل الله تعالى .

كل أولئك يمكن أن يعد بذوراً أولى انبثقت منها دوحة الحياة الروحية التى تمت بعد ذلك وزكت وامتدت أغصانها وأينعت - فإذا هى تنشر ظلالها وتؤتى أكلها فى حياة التابعين وغير التابعين ممن جاءوا بعد وكانت لهم شدة عناية بأمر الدين .

مكانه التصوف كعلم فى الفكر الإسلامى

إن علم التصوف كغيره من العلوم الإسلامية الأخرى التى تراوحت أقوال العلماء والباحثين فى مكانته فقد دار حوله جدل عميق واحتدم على ساحته النقاش وتناولته عقول

(١) الدكتور محمد مصطفى حلمى - الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٥

المسلمين وغير المسلمين بالبحث والتنقيب عن مميزاته وحسناته وعن علله وسيئاته - فهذا هو أبو القاسم القشير أهم مؤرخ صوفى دافع عن منزلة التصوف ومكانتة فى الفكر الإسلامى ، فلم تكن رسالته فى علم التصوف إلا للرد على أعداء الصوفية وبيان قواعد التصوف وأركانه وارجاعه إلى أصوله الأولى التى كانت سمة الصوفية الأوائل ، ولكنها اندثرت وطوى بساطها ولذلك يقول القشيرى « وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الإحترام ، وطرح الأحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان .

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامة وهم محو وليس لله فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولالوم » (١)

هذا وقد عد القشيرى الصوفية فرقة خاصة من أهل السنة والجماعة وميز بين الصوفية المخلصين لعقيدتهم والمتمسكين بالكتاب والسنة وبين من عاداهم الذين يدعون أنهم من الواصلين أصحاب الكشف والعرفان ولهذا فقد وضع أصول التصوف وقواعدة الذى يدل على تعظيم الشريعة يقول القشيرى اعلموا رحمكم الله تعالى ، أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لافضيلة فوقها فقيل لهم : الصحابة .

---

(١) الأمام - القشيرى - الرسالة جـ ١ ص ٢٨ - ٢٩ - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود - الدكتور محمود بن الشريف دار النصر للطباعة ١٩٧٢ م

ولما ادركهم أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة : التابعين . ورأوا فى ذلك أشرف سمة ثم قيل بعدهم أتباع التابعين .

ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد .

ثم ظهرت البدع وحصل التداعى بين الفرق فكل فريق أدعوا أن فيهم زهاداً . فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفساهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة بأسم « التصوف » واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة »(١) كما يبين القشيرى أن صاحب هذا العلم يحب أن تكون عقيدته سليمة صحيحة خالية من البدع والأوهام والضلالات فيقول كذلك سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : فتجب البداية بتصحيح اعتقاد بينه وبين الله تعالى ، صاف عن الظنون والشبه ، خال من الضلالة والبدع صادر عن البراهين والحجج »(٢)

كما عقد ابن خلدون فى كتابه المقدمة فصلاً عن التصوف - تحدث فيه عن أهمية التصوف ونشأته ومنهجة وقواعده كما وضح فى هذا الفصل كل ماسبقه من آراء مؤرخى التصوف القدماء الى جانب موقفه الخاص من التصوف والصوفية فيقول عن علم التصوف هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقه هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية - وأصلها العكوف على العبادة والأنقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخارف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والأنفراد عن الخلق فى

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٦١ - ٦٢

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٣١

الخلوة والعبادة وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ·

فلما فشا الأقبال على الدنيا فى القرن الثانى ومابعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا أختص المقبلون على العبادة بأسم التصوف والمتصوفة ·

فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والأنفراد عن الخلق والأقبال على العبادة بمواجد مدركة لهم (١)

[illegible] ابن خلدون مبيناً أن أصل منهج هؤلاء القوم هو محاسبة النفس على الأفعال والأقوال كما يبين الآداب التى تدور بينهم موضحا الاصطلاحات فى الألفاظ المتعارفة التى تدل على التعبير بلفظ يتسير فهمه منه « فلهذا أختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذى ليس يوجد بغيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه – وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهى الأحكام العامة فى العبادات والعادات والمعاملات ، وصنف مخصوص بالقوم فى القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها » (٢)

كما يعتبر فخر الدين الرازى المؤرخ الوحيد الذى اعتبر الصوفية فرقة لها مكانتها بين العلوم الإسلامية الأخرى وأن لها منهجها المختلف عن بقية الفرق الإسلامية ولذلك يقول الرازى اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية وهذا طريق حسن وهم فرق :

الأول : أصحاب العادات : وهم قوم منتهى أمرهم وغايته تزيين الظاهر كلبس الخرقة

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٩
(٢) المصدر السابق ص ٤٤٠

وتسوية السجادة .

الثانية : أصحاب العبادات : وهم قوم يشتغلون بالذكر والعبادة مع ترك سائر الأشغال .

الثالثة : أصحاب الحقيقة : وهم قوم إذا فرغوا من أداء الفرائض لم يشتغلوا بنوافل العبادات بل بالفكر وتجريد النفس عن العلائق الجسمانية وهم يجتهدون أن لايخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله وهؤلاء خير فرق الآدميين .

الرابعة : النورية : وهم طائفة يقولون أن الحجاب حجابان نورى - ونارى - أما النورى فالأشتغال باكتساب الصفات المحمودة كالتوكل والشوق والتسليم والمراقبة والأنس والوجد والحال - وأما النارى - فالأشتغال بالشهوة والغضب والحرص والأمل - لأن هذه الصفات نارية كما أن ابليس لما كان ناريا فلا جرم وقع فى الحسد .

الخامسة : الحلولية : وهم طائفة من هؤلاء القوم الذين ذكرناهم - يرون فى أنفسهم أحوالا عجيبة وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر يتوهمون أنهم قد حصل لهم الحلول أو الأتحاد فيدعون دعاوى غريبة - وأول من ظهر هذه المقالة فى الاسلام الروافض - فانهم ادعوا الحلول فى حق أئمتهم .

السادسة : المباحية : وهم قوم يحفظون طاعات لا أصل لها وتلبيسات فى الحقيقة - وهم يدعون محبة الله تعالى وليس لهم نصيب فى شىء من الحقائق بل يخالفون الشريعة ويقولون إن الحبيب رفع عنا التكليف وهؤلاء شر الطوئف وهم على الحقيقة على دين مزدك » (١)

(١) الإمام فخر الدين الرازى - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٦ تحقيق الدكتور على سامى النشار - طبعة القاهرة ١٩٣٨م

وهكذا نجد أن الرازى حاول التعريف بالمذهب الصوفى الصحيح بأعتباره فرقه من الفرق الإسلامية التى لها مكانتها فى الفكر الإسلامى كما أنه من ناحية أخرى حصر الفرق الفرعية لهذه الفرقة مشيراً إلى ماارتكبوه من اراء بلغت فى بعض هذه الفرق الفرعية حد الخروج على مقررات الشريعة الإسلامية ٠

وهكذا نجد من خلال عرضا لهذه الأراء أن التصوف السنى القائم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم له المكانة فى الفكر الإسلامى ونسبة هذا العلم الى الشرع كما قال ابن خلدون « هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة » ولذلك يقول لدكتور / عبدالله الشاذلى إن النظرة المنصفة والعادلة تقضينا أن نقول : إن التصوف السنى المهتم بالمجاهدة عن طريق العبادة والطاعة الشرعيتين ، والمتجه إلى القلب وتصفيته والنفس وصقلها والأخلاق وتهذيبها ، والمستعمل فى مصطلحاته الالفاظ الشرعية والواصل فيما وراء ذلك إلى مذاقات الحب والاستسلام والكشف بالبصيرة - هو علم شرعى فى الحقيقة وعقلى فى الكسب والبدايات والأرادة - أما التصوف الذى استعمل الرياضة العقلية والتأملية واستخدام المصطلحات التى يغلب عليها الطابع الفلسفى ٠

وتحدث رجاله عن نظريات تخرج عن حدود المبادىء الإسلامية العامة والخاصة فإنه يدخل فى الأطار الفلسفى الأشراقى أكثر من دخوله رحاب العلوم الشرعية (١)

---

(١) الدكتور عبد الله الشاذلى - التصوف الإسلامى فى ميزان الكتاب والسنة جـ ١ ص ٣٩٠

المبحث الثانى

معنى الكلمة وتاريخها فى الإسلام

اشتقاق الكلمة وتعريفها

عرف العلماء التصوف بتعريفات كثيرة - وبالنظر الى هذه التعريفات نجد أن أكثر هذه التعريفات تعود إلى معنى الكلمة أو اشتقاقها وأحينا تعود الى الأوصاف التى تقوم بالسالك ·

لهذا نجد أن من أقدم الأراء التى قيلت فى ذلك ماذكره البيرونى من أن هذ اللفظ انما هو تحريف لكلمة « سوف » اليونانية التى تعنى الحكمة - وهذا رأى ضعيف لأن الأفكار التى اعتمد عليها البيرونى فى ارجاع التصوف الى « سوف » لم تظهر بين الصوفية بصورة فلسفية إلا بعد ظهور كلمة صوفى بما يزيد عن خمسة قرون ولو كان من أصل يونانى لنبه عليه الصوفية ولنص المؤلفون من العرب على هذا الاشتقاق (١) ·

وجمهور الصوفية يذهبون إلى أنه مشتق من الصفاء يقول الهجويرى أن التصوف هو : صفاء السر (٢) ·

كما يذهب بعضهم إلى أنه مشتق من الصفة نسبة إلى أهل الصفة الذى أطلق على بعض فقراء المسلمين فى صدر الإسلام إذ كانوا يأوون الى صفة بنا هالهم الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد بالمدينة ·

وذهب آخرون إلى أنه مشتق من الصف وهو الصف المستقيم فى حضرة الله تعالى وهذه الأقوال لاتتفق مع قواعد الأشتقاق فى اللغة العربية ·

وهذا صاحب اللمع يرى أن هذه الكلمة نسية الى لبس الصوف فيقول نسبتهم إلى

---

(١) الدكتور عبدالله الشذلى - التصوف الإسلامى فى ميزان الكتاب والسنة جـ ١ ص ٢٩٦ دار الهداية للطباعة والنشر ·

(٢) الهجويرى - كشف المحجوب جـ ١ص ٢٣٤ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ·

ظاهر اللبسة ، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء ويكثر فى ذلك الروايات والأخبار ، فلما أضفتهم الى ظاهر اللبسة كان ذلك اسماً مجملا عاماً مخبرا عن جميع العلوم والأعمال الأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة - ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم الى ظاهر اللسبة فقال عز وجل « وإذا قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » (١)

وكانوا قوما يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم الى نوع من العلوم والأعمال والأحول التى كانوا بها مترسمين فكذلك الصوفية عندى نسبوا الى ظاهر اللباس ولم ينسبوا الى نوع من أنواع لعلوم والأحوال التى هم بها مترسمون ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين » (٢)

والى ذلك يشير السهروردى فيقول « فمن هذا الوجه ذهب قوم الى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ولكونه لباس الأنبياء عليهم السلام » (٣)

ويذكر السهروردى رواية بسندها عن مسلم عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف » .

وقال الحسن البصرى - رضى الله عنه : لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف »

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ١١٣ .

(٢) أبو نصر السراج الطوسى - اللمع ص ٤٠ - ٤١ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، طه سرور طبع ونشر دار الكتب الحديثة بمصر - مكتب المثنى ببغداد ١٩٦٠ م .

(٣) السهروردى - عوارف المعارف ص ٦٠ دار القومية العربية للطباعة ١٩٧٣م .

ولهذا يرى الأمام السهرودى أن اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا وانصراف همهم الى أمر الآخرة ٠

وهذا الأختيار يلائم ويناسب من حيث الأشتقاق لأنه يقال : تصوف إذ لبس الصوف – كما يقال تقمص إذا لبس القميص ٠

لهذا يوضح الأمام السهروردى أولية هذه التسمية على أية تسمية أخرى فيقول ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم فى الأحوال وارتقائهم من عال الى أعلى منه لايقيدهم وصف ولايحبسهم نعت ، وأبواب المزيد علما وحالاً عليهم مفتوحة بواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم ، فلما تعذر تقلدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم وتجنس مزيدهم نسبوا الى ظاهر اللبسة ، وكان ذلك أبين فى الأشارة اليهم وادعى الى حصر وصفهم » (١)

كما يبين الأمام السهروردى السبب فى أولية هذه التسمية على أية تسمية أخرى فيقول « ولما كان الاعتزاء الى القرب وعظم الاشارة الى قرب الله تعالى أمر صعب بعز كشفه والاشارة اليه ، وقعت الأشارة الى زيهم ستراً لحالهم وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الأشارة اليه وتتداوله الألسنة ، فكان هذا أقرب الى الأدب .... وأيضا لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن والحكم بالظاهر أوقف وأولى– فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب (٢)

ونجد أن استاذنا المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود يوافق على هذا الرأى فيقول ولقد رأى هؤلاء الزهاد – من ناحية الملبس فى الصوف مايحقق اهدافهم التى تتصل

(١) المصدر السابق ص ٦١
(٢) المصدر السابق ص ٦٢

بالتقشف والشظف والخشونة فهو متين رخيص خشن لايحتاج الإنسان معه فى الشتاء الى غيره ولايحتاج الى تغييره كثيراً ، ذلك أنه لايبلى بسرعة فتصوفوا ، أى لبسوا الصوف » (١)

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أن التوفيق قد صاحب هذا الأطلاق فيقول وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الصوف فهى كلمة موفقة كل التوفيق ولعل عناية المقادير : هى التى هيأت لها الجو للظهور والشيوع إذا أنها تمت بصلة حرفية نغمية جرسية الى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف : كالصفاء « وصلته بالتصوف ظاهرة »

والصف « الصف الأول فى الجهاد : جهاد العدو وجهاد النفس »

والصفة « صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم للجهاد »

والصفة « الصفة الجميلة »

وسوفيا اليونانية (٢)

وكان من التوفيق أيضا – هذا الغموض نفسه فى أصل الكلمة – فما من شك فى أن اختلاف المذاهب والأراء فى أصلها : يبين الكثير من معانى التصوف ومن مظاهرة (٣).

ولما كان بحثنا يتعلق بالتصوف الإسلامى فأننا نتعرض لأول اطلاق لهذه الكلمة فى العربية فتختلف الأراء فى ذلك – فيذهب بعضها إلى أنه كان لها وجود فى عصر الرسول

---

(١) الدكتور عبد الحليم محمود – المنقذ من الضلال مع أبحاث فى التصوف ص ١٧٦ مطبعة حسان – الطبعة الثامنة ١٩٧٤ م

(٢) المصدر السابق نفس المكان

(٣) المصدر السابق ص ١٧٧

صلى الله عليه وسلم أو قبل الإسلام - ويرى أخرون أن أول من تسمى صوفيا هو أبو هاشم الكوفى المعاصر لسفيان الثورى ١٦١هـ

أما الأمام القشيره فيقول « واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة » (١)

إذا فهذه الكلمة عربية ولذلك يقول استاذنا الدكتور ضياء الدين الكردى وأماما نقطع به فهو أن الكلمة عربية وأنها كانت مستعملة قبل شيوعها واطلاقها فى أواخر القرن الثانى الهجرى لتكون علماً على طائفة معينة من الناس ذوى سمات خاصة (٢) بهم ولذلك يقول الأمام الطوسى وأما قول القائل : إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال لأن فى وقت الحسن البصرى رحمة الله كان يعرف هذا الأسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى لله عليه وسلم ورضى الله عنهم وقد روى عنه أنه قال : رأيت صوفياً فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال : أربعة دوانيق فيكفينى مامعى » (٣)

ولذلك نجد أن الأمام الطوسى يرد على من يحاول التقليل من شأن هذه التسمية فى صيغة سؤال وجواب فيقول إن سأل سائل فقال : لم نسمع يذكر الصوفية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم أجمعين ولافيمن كان بعدهم ولانعرف إلا العباد والزهاد والسياحين والفقراء ، وماقيل لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صوفى فنقول ولله التوفيق :

الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لها حرمة وتخصيص من شمله ذلك ، فلا

---

(١) لأمام القشيرى - الرسالة جـ ١ ص ٦٢ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف دار النصر للطباعة .

(٢) الدكتور ضياء الدين الكردى - نشأة التصوف الإسلامى ص ٤٥ مطبعة السعادة ١٩٨٤م .

(٣) الأمام الطوسى - اللمع ص ٤٢ مطبعة السعادة ١٩٦٠

يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة وذلك لشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نرى أنهم أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والصابرين والمخبتين وغير ذلك ومانالوا جميع مانالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نسبوا إلى الصحبة التى هى أجل الأحوال استحال أن يفضلوا بتسمية غير الصحبة التى هى أجل الأحوال (١)

ولذلك يقول الأمام القشيرى فى نفس المعنى الذى ذهب إليه الأمام الطوسى أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا لافضيلة فوقها فقيل لهم : الصحابة .

ولما أدركهم أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة : التابعين ورأوا فى ذلك شرف سمة ثم قيل لمن يعدهم : اتباع التابعين .

ثم إختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين : الزهاد والعباد .

ثم ظهرت البدع وحصل التداعى بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا .

فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم « التصوف » (٢)

ولذلك يقول استاذنا الدكتور ضياء الدين الكردى وإن تاريخه الحقيقى يرجع إلى حياة

---

(١) المصدر السابق نفس المكان .

(٢) الأمام القشيرى . الرسالة جـ ١ ص ٦٢

رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من حوله، وماكان فى أنفسهم من صفاء وضياء وخير جبلوا عليه وصقله الإسلام بتعاليمه ومبادئه وقيمة الروحية . فحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة معه هى بداية التصوف الإسلامى (١)

معنى الكلمة

رأينا فيما سبق الأخذ والرد بين المؤرخين فى أصل كلمة تصوف ولهذا فأنا نجد أيضا أن أهل هذا الفن عرفوا هذا العلم من اتجاهات متعدده أهمها :-

١- الاتجاه الأخلاقى :-

إن تعريف التصوف من ناحية الأتجاه الأخلاقى له عناية كبيرة عند كثير من الصوفية أنفسهم وعند غيرهم من المؤرخين والباحثين فى التصوف ومن أهم تعريف هذا الإتجاه .

يقول أبو بكر الكتانى المتوفى سنه ٢٣٣ هـ « التصوف خلق فمن ذاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء »

وجاء فى الرسالة القشيرية أن أبا محمد الجريرى سئل عن التصوف فقال : الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنىّ » (٢)

وأبو الحسن النورى يقول « ليس التصوف رسما ولا علما ولكنه تخلق بأخلاق الله » إلا أن تعريف التصوف بالجانب الأخلاقى ليس جامعاً لأن للتصوف جوانب أخرى لابد من ملاحظتها ومع هذا فالتعريف من هذا الاتجاه شائع فى الشرق والغرب وهو أيضا شائع فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث .... ومع ذلك فإنه لايعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً .

---

(١) الدكتور ضياء الكردى - نشأة التصوف الإسلامى ص ٥

(٢) الأمام القشيرى - الرسالة جـ ٢ ص ٥٥١

ذلك أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف ، ذكرو هم أنفسهم تعاريف أخرى وذلك – على الأقل – يدل دلالة لالبس فيها على أنهم لم يرو كفاية الجانب الأخلاقى فى تحديد التصوف وتعريفه .

ونقد هذا التعريف على هذا النحو لايعنى استبعاد العنصر الأخلاقى من حقيقة التصوف لأنها – أى الأخلاق –كما يقول استاذنا الدكتور عبد الحليم محمود ملازمة للتصوف وللصوفى ملازمة تامة لاتتخلى عنه ولايتخلى عنها ولكن ليس معنى ذلك أنها هى التصوف » (١)

اتجاه الزهد

ويتجه آخرون فى تعريف التصوف من ناحية موقفه من متع الحياة الدنيا وممن ذهب إلى هذا الاتجاه سمنون فحينما سئل عن التصوف قال : أن لاتملك شيئا ولايملك شيء »

وقال رويم التصوف مبنى على ثلاث خصال .

التمسك بالفقر والأفتقار الى الله والتحقق بالبذل والايثار وترك التعرض والأختيار » .

وقال معروف الكرخى :التصوف :الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق » (٢) ومامن شك فى أن الصوفى : لايتعلق قلبه بالدنيا ، ولو كان عنده الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد فى الدنيا شيء والتصوف شيء آخر ولايلزم من كون الصوفى زاهداً أن يكون التصوف هو الزهد (٣)

---

(١) الدكتور عبد الحليم محمود – المنقذ من الضلال مع ابحاث فى التصوف ص ١٧٩

(٢) الأمام القشيرى الرسالة جـ ٢ ص ٥٥٣

(٣) الدكتور عبد الحليم محمود مقدمة المنقذ من الضلال مع ابحاث فى التصوف ص ١٧٩

التصوف عبادة وطاعة :

ويتجه أخرون فى تعريف التصوف من ناحية موقفه من أعمال العبادة والطاعة فإذا رأوا شخصا كثير العبادة قالوا عنه : أنه صوفى ٠

يقول عمرو بن عثمان المكى : التصوف أن يكون العبد فى كل وقت مشغولا بما هو أولى فى الوقت (١)

وقال بعضهم : التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى » وقيل أيضاً : التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع » وقال أبو حفص : التصوف كله آداب ، لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول » (٢)

وهذه التعريفات وغيرها تبرز جوانب الطاعة والعبادة ولكنها ليست وحدها هى التصوف يقول الدكتور عبد الحليم محمود ولاريب أن الصوفى كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصا كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ويكثرون من النوافل ويداومون على العبادة ولايكون مع ذلك أنهم من الصوفيه (٣)

الفرق بين الزاهد والعابد والعارف

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا فى الأشارات والتنبيهات « المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم « الزاهد » والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام

(١) الأمام السهروردى - عوارف المعارف ص ٥٧
(٢) المصدر السابق ص ٥٥
(٣) الدكتور عبد الحليم محمود مقدمة المنقذ ص ١٧٩ مع ابحاث فى التصوف

ونحوهما يخص باسم « العابد » والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق فى سره يخص باسم « العارف » وقد يتركب بعض هذه مع بعض » (١)

وهذه التفرقة نجدها عند السيدة رابعة العدوية ، فزهد غير الصوفى ، انما هدفه الاستمتاع فى الآخرة وزهد الصوفى إنما يهدف الى التنزه عن التشغل بغير الله تعالى وعبادة غير الصوفى تهدف الى دخول الجنة وعبادة الصوفى تهدف الى استدامة الصلة بالله تعالى « لانه مستحق للعبادة لأنها نسبة شريفة اليه لا لرغبة أو رهبة » (٢)

هذه المعانى الخاصة بأهداف الزهد والعبادة من حيث كونها لوجه الله أنها معان عادية عند الصوفية وعلى هذا فالعارف عند ابن سينا هو الصوفى (٣) ويتجه آخرون الى تعريف التصوف من جهات فكرية متعددة ولذلك يقول الإمام السهروردى وأقوال المشايخ تتنوع معانيها لأنهم أشاروا فيه إلى أحوال فى أوقات دون أوقات وتحتاج فى تفصيل بعضها من البعض إلى الضوابط ، فقد تذكر أشياء فى معنى التصوف ذكر مثلها فى معنى الفقر وتذكر أشياء فى معنى الفقر ذكر مثلها فى معنى التصوف .

وحيث وقع الأشتباه فلابد من بيان فاصل تشتبه الأشارات .... » (٤)

ولعل هذا الرأى الذى ذهب إليه الأمام السهرودى هو الذى جعل الدكتور عبد الحليم محمود يختار من جملة التعريفات تعريف أبو بكر الكتانى المتوفى ٣٢٢هـ .

---

(١) ابن سينا - الأشارات والتنبيهات ص ٥٧ ، ٥٨ تحقيق الدكتور سليمان دنيا القسم الرابع الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

(٢) الدكتور عبد الحليم محمود المنقذ من الضلال مع ابحاث فى التصوف ص ١٨١

(٣) المصدر السبق ص ١٨٠

(٤) الأمام السهروردى - عوارف المعارف ص ٥٥

التصوف : صفاء ومشاهدة ٠

ولذلك نجده يقول : وإذا نظرنا إلى تعريف الكتانى ، فأننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين هما اللذان فيما نرى يكونان فى وحدة متكاملة تعريف التصوف :

أحدهما : وسلية :

والثانى : غاية

أما الوسيلة : فهى الصفاء ٠

وأما الغاية : فهى المشاهدة ٠

والتصوف من هذا التعريف طريق وغاية (١)

---

(١) الدكتور عبد الحليم محمود - المنقذ من الضلال مع ابحاث فى التصوف ص ١٨٢

المبحث الثالث

حول نشأة التصوف الإسلامى ومصادره

أهم العوامل التى أثرت فى نشأة التصوف

إن البحث فى هذه المسألة يجد الباحث نفسه أمام مذاهب متعددة وأراء مختلفة فمنهم من يحاول ارجاع نشأة التصوف الإسلامى إلى عوامل خارجية ومنهم من يرده إلى عوامل داخلية .

والذين يرجعونه إلى عوامل خارجية مختلفون فى هوية هذه العوامل خصوصاً من جانب المستشرقين الذين أنتهت ابحاثهم إلى أن الحياة الروحية فى الإسلام ترتبط بكل شىء ماعدا الاسلام - أثارتها - اليهودية والمسيحية كما أقامتها البوذية واليوجا والأديان الهندية والفارسية وغيرها وكما يقول الدكتور النشار وكان رائد هؤلاء جولدتسهير..... يهودى مجرى متعصب - رأى أن يربط زهاد الإسلام وصوفيتهم بكل شىء غير اسلامى (١)

ومن يردونه إلى عوامل داخلية مختلفون أيضاً فى طبيعة تلك العوامل - أهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة - أو الحياة الإجتماعية التى طرأت على المسلمين أنذاك الوقت أو الظروف الأقتصادية أو غير ذلك من العوامل .

وإذا كان هذا هو موقف العلماء والباحثين من التصوف من حيث نشأته فكذلك أختلفوا فى العلوم الإسلامية الأخرى من حيث النشأة كعلوم البلاغة والأدب والنحو وغير ذلك من العلوم الإسلامية الأخرى حتى رأينا ابن خلدون ينعت علم التصوف بأنه علم حادث فى الملة وليس من نسيجها فيقول : هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة فى الملة ويوضح ذلك فيقول ابن خلدون فلما كتبت العلوم ودونت والف الفقهاء فى الفقه وأصوله

---

(١) الدكتور على سامى النشار - نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٥

والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة فى طريقتهم (١)

وإذا كان صحيحا أن بعض العلوم الإسلامية نشأة متأخرة عن ظهور الإسلام نفسة فلا يلزم من ذلك أن تكون نشأة هذه العلوم تابعة لعوامل أجنبية صرفة .

ذلك أن الإنسان إذا نظر إلى هذا الخلاف حول نشأة التصوف أو علوم المسلمين ورأى أن هذه النشأة تعود إلى عوامل خارجية بحته نراهم يقصدون من ذلك سلب المسلمون أو الإسلام القدرة على إنشاء العلوم أو المعارف أو القدرة على التفكير والعطاء المستقل كما زعم ذلك جولد تسهير .

كما أن من يرى أرجاع نشأة التصوف الإسلامى الى عوامل داخلية محضة فهذا هو الصواب ، ذلك أنه يرى اظهار المسلمين بأنهم رواد الثقافة والحضارة والعلوم والفنون وهم أقدر على إستيعاب كل العلوم والمعارف خصوصاً فى التصوف لأنه ظاهرة روحية تتعلق بواقع حياة المسلمين الأول .

كما أنه ليس من الصواب أن نرجع أى ظاهرة فى بيئة ما إلى عوامل خارجية عنها واذا كان التصوف الإسلامى وغيره من العلوم الإسلامية الأخرى قد تأثر بعوامل خارجية فى صورها ، وذلك أن التصوف وغيره من علوم المسلمين جزء لايتجزأ من تاريخ الإسلام نفسه ومظهر من مظاهره .

بيد أن التصوف فى نشأته ان لم يكن وليد الإسلام نفسه فهو وليد تاريخ الإسلام الدينى والإجتماعى والعقلى والسياسى - وهذا هو تاريخ الأمة الإسلامية وماكان لها من

---

(١) ابن خلدون - المقدمة ص ٤٤٠ ، ٤٤٦ طبعه دار الشعب .

حضارات وثقافات مزجت بالدين مرجاً (١)

وعلى ذلك فإنا نشير هنا إلى أهم العوامل الداخلية التى أثرت فى نشأة التصوف الإسلامى :-

١ - *القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم :*

يقول بعض الباحثين إن الناظر فى تاريخ التصوف الإسلامى يجده قد تحقق عملا قبل اطلاق اسم التصوف عليه ٠

وإن تاريخه الحقيقى يرجع إلى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من حوله وماكان فى أنفسهم من صفاء وضياء وخير جبلوا عليه وصقله الإسلام بتعاليمه ومبادئه وقيمه الروحية (٢)

وكان رواد الروح الأوائل فى الاسلام يتعلقون بالمصطلح القرآنى أو بالمصطلح الحديثى يعيشون فيه ويطلقونه على أنفسهم أو يطلق عليهم (٣) وإذا كنا نتحدث فإنا نتحدث عن التصوف السنى المعتدل فقد نشأ الزهد المعتدل والتصوف فى ثوبه السنى واستجابة لتعاليم القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم - والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تدعو الى العبادة والذكر قال تعالى « يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو أنقص منه قليلا أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، انا ستلقى عليك قولاً ثقيلاً ، ان ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا ، إن لك فى النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك

---

(١) الدكتور عبد الفتاح الفاوى محمود - مقدمة تحقيق اصول الملامتية وغلطات الصوفية ص ٤٦ - مطبعة الأرشاد ١٩٨٥ ٠

(٢) الدكتور ضياء الدين الكردى - نشأة التصوف الإسلامى وتطورة ص ٥

(٣) الدكتور النشار نشأة الفكر جـ ٣ ص ٦١

وتبتل إليه تبتيلا » (١)

وقال تعالى مشيراً إلى صفات الورع والتقوى والزهد مطالباً المسلمين بالتحلى بها رجالاً كانوا أو نساءاً قال تعالى « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما » (٢)

وقولة تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون » (٣)

وغير ذلك من الآيات فى هذا المقام كما جاء فى القرآن الكريم الآيات التى تدعوا الى التقليل من شأن الدنيا وزخرفها وعظم شأن الحياة الآخرة قال تعالى « فأما من طغى وآثرا الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » (٤)

وغير ذلك من الآيات فى هذا المقام

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة فيها وصف الجنة ونعيمها وملاذها البدنية والروحية وأهمها النظر الى وجه الله الكريم قال تعالى « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظره » (٥)

كما صور القرآن الكريم النار بصورة دفعت المسلمين إلى التفانى فى العبادة طلبا

---

(١) سورة المزمل الآية رقم ١ – ٨

(٢) سورة الأحزاب الاية رقم ٣٤

(٣) سورة السجدة الآية رقم ١٦

(٤) سورة النازعات الآية رقم «٣٧ – ٤١ »

(٥) سورة القيامة الآية رقم ٢٢

للنجاة خوفاً من الوقوع فى النار كما أقبلوا على التوبة والأستغفار خوفاً من العذاب يوم القيامة من ذلك قوله تعالى «إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا» (١) وقوله تعالى « وإن يتسعيثوا يغاثوا بمــاء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » (٢) وقوله تعالى « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كن لايؤمن بالله العظيم ولايحض على طعام المسكين » (٣)

فالقرآن الكريم إذن بآياته الدالة على الترغيب والترهيب كان عاملا من عوامل نشأة الزهد والتصوف فى ثوبه السنى ٠

وكما أن القرآن الكريم بآياته الكثيرة كان عاملا من عوامل نشأة الزهد والتصوف الإسلامى فإن السنةالنبوية الشريفة قد أسهمت بالكثير فى هذا الجانب من ذلك ماجاء فى الحديث الشريف « رب أشعث أغير ذى طمرين ، لو أقسم على الله لأبره »، منهم البراء بن مالك وقد كان البراء بن مالك من أهل الصفة (٤) وجاء فى حديث وابصة بن معبد الجهنى – حفظ لنا الحديث المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى يعتبر جوهر التصوف وهو : « ياوابصة جئت تسألنى عن البر والأثم : ياوابصة استفت قلبك : استفت نفسك – البر ما اطمأن اليه القلب ، واطمأنت اليه النفس ، والأثم ماحاك فى النفس ، وتردد فى الصدر وإن افتاك الناس وأفتوك » (٥) هذا وقد ذكر عن العرباض ابن سارية وهو من أهل الصفة أنه كان من البكائين وفيه وفى أصحابه نزلت الآية

---

(١) سورة النبأ الاية رقم ٢١
(٢) سورة الكهف الاية رقم ٢٨
(٣) سورة الحاقة الآية رقم ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤
(٤) أبو نعيم الأصفهانى – حلية الأولياء جـ ٢ ص ٤ مطبعة السعادة القاهرة ١٩٣٢
(٥) المصدر السابق نفس المكان

وأعينهم تفيض من الدمع » .

لهذا وغيرة يقول الدكتور النشار إن من الثابت علمياً أن التراث الصوفى الإسلامى هو أعظم تراث من نوعه قد وصلنا ولايقاس به التراث الصوفى غير الإسلامى (١)

فقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضى الله عنهم أجمعين أعظم قدوة حسنة فى الزهد والتصوف فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأعدلهم وأحلمهم وأشجعهم وقضى صلى الله عليه وسلم حياته بما فطره عليه ربه من الخير ممتثلا هدى الله عز وجل فلقد سئلت السيدة عائشةرضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقالت « كان خلقه القرآن »

وعلى هذا وكما يقول الدكتور مدكور « إن التصوف ظاهرة اسلامية نبتت فى جو الإسلام وبيئته ، وتأثرت أساساً بفعل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابة ، واعتمدت على ماجاء فى الكتاب والسنة من حكمة وموعظة ، وشاركت المدارس الإسلامية الكبرى فى بعض ماعرضت من مشاكل ولكنها كالظواهر الإسلامية الأخرى لم تسلم مما سرى الى العالم العربى من عوامل خارجية » (٢).

---

(١) الدكتور النشار نشأة الفكر جـ ٣ ص ٨٥

(٢) الدكتور إبراهيم مدكور – الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق جـ ٢ ص ١٣٤

الحياة الإجتماعية

من المعلوم أن أية ظاهرة سواء أكانت طبيعية أو فكرية أنسانية تتدرج فى التطور طبقا لظروف خاصة وبفعل عوامل نفسية أو زمانية أو مكانية أو إجتماعية ذلك أن التطور الإجتماعى سمة من سمات العلوم عامة – فلما اتسعت الفتوح الإسلامية وأتصل العرب بغيرهم من الأمم التى كانت لها حضارات ، وامتازت حياتها بكثير من الوان الترف والنعيم – فتنهم مارأوا من هذه الألوان وفشا بينهم الاقبال على الدنيا وانطلقت أنفس على سجيتها منصرفه : عن الدين مهملة لأحكامه ممعنه فى الاستزادة من المتاع ، وذلك فى القرن الثانى للهجرة – هنالك اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة بعد أن كانوا يعرفون قبل ذلك باسم الزهاد تارة والعباد تارة أخرى والنساك والفقراء والبكائين أطواراً (١)

وهذا العامل يفسر لنا كيف أن حياة الزهد والتقشف عاشت جنباً إلى جنب مع حياة البذخ والترف وكيف نأى كبار الصوفية بأنفسهم بعيداً عن ماديات الحياة – مع أن الإسلام لم يحرم التمتع بالحلال من أمور الدنيا – ولكن الذى حرمه هو الأنغماس فى شهواتها التى تشغل القلب عن ذكر الله تعالى قال تعالى « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »(٢) وقوله تعالى : « وكلوا مما رزقكم الله حلال طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » (٣)

---

(١) الدكتور / مصطفى حلمى – الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٠٠ مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٨٤

(٢) سورة الأعراف الآية رقم ٣٠

(٣) سورة المائدة الآية رقم ٨٩

إلا أن بعض أتقياء المسلمين أخذوا على أنفسهم بالشدة بمثابة رد فعل للتفسخ والتحلل الذى نشأ عن الثراء الذى طرأ على المجتمع الإسلامى نتيجة لاتساع الفتوحات الإسلامية والإلتقاء بغيرهم من أبناء الأمم الأخرى .

وعلى قدر نسبة التطور واتساع رقعه العمران فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة التطور فى الجودة يقول ابن خلدون فلماكتبت العلوم ودونت والف الفقهاء فى الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة فى طريقهم ، فمنهم من كتب فى « احكام » الورع ومحاسبة النفس على الأقتداء فى الأخذ والترك كما فعله « المحاسبى » فى كتاب « الرعاية » له ومنهم من كتب فى آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم فى الأحوال كما فعله القشيرى فى « الرسالة » والسهروردى فى كتاب « عوارف المعارف » وأمثالهم ، وجمع الغزالى رحمه الله بين الأمرين فى كتاب « الاحياء » فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم فى عباراتهم ، وصار علم التصوف فى الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط (١)

كما تأثر التصوف فى نشأته أيضا بالمدارس الاسلامية التى قامت الى جانبهم حتى انتقلت اليهم عدوى بعض الفرق الإسلامية - فكان لهم مع الفقهاء جدل وحوار لم يخل من عنف أحيانا ، وعرضوا لبعض القضايا الفقهية كالحلال والحرام فى الفرض والناقلة فى ماهية العبادة وكيفية آدائها (٢)

وهكذا نجد أن التصوف اعتمد فى النشأة والتحول والتطور على الركائز الإسلامية الصحيحة كالكتاب والسنة .

---

(١) ابن خلدون - المقدمةص ٤٤٠

(٢) الدكتور ابراهيم مدكور - الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق جـ ٢ ص ١٣٣

العوامل الخارجية

هذه العوامل التى نتحدث فيها عن أثر المسيحية ، والفلسفة الفارسية والأفلاطونية المحدثة على التصوف الاسلامى فقد ظهرت أثر تلك الثقافات بصورة عامة فى التصوف الإسلامى وخاصة فى عصوره المتأخرة وبخاصة فى صورته الفلسفية إذا جاز لنا أن نقسم التصوف إلى تصوف سنى وآخر فلسفى :

أثر النصرانية فى التصوف الإسلامى:

ذهب كثير من الباحثين والمستشرقين الى تأثر التصوف الإسلامى بالعناصر المسيحية التى كانت منتشرة فى شبة الجزيرة وفى كثير من الأمم التى امتدت اليها الفتوحات الإسلامية فمثلا يرى الدكتور مدكور قائلا « انتشر الإسلام فى بلاد سادت فيها المسيحية من قبل كالشام ومصر وشمال افريقيا ، وكان فيها رهبانهم وأديرتهم ، فالتقى تنفير الإسلام من الدنيا بزهد هؤلاء الرهبان ولم يتردد متصوفة الإسلام أن يحاكوهم » (١)

كما ذهب الدكتور مدكور الى أن صوفية المسلمين أخذوا عن المسيحية بعض المبادىء والمصطلحات والأفكار كما هو عند الحلاج (٢)

كما بالغ كثير من المستشرقين فى الأثر النصرانى فى التصوف ومن هؤلاء المستشرقين « فون كريمر » « وجولد زيهر » « وتلدكه » « ونيكلسون » « وفنسنك » « وآسين بالاسيوس » « واندريه » « وأوليرى »

ويكمن أن نشير هنا إلى مايذهب بعض هؤلاء فى هذا الصدد : ففون كريمر ينظر الى التصوف الإسلامى والى بعض الأقوال المأثورة عن الصوفية ، على أنها ثمرات نمت

---

(١) لدكتور ابراهيم مدكور - الفلسفة الإسلام منهج وتطبيق جـ ٢ ص ١٣٥

(٢) المصدر السابق نفس المكان

ونضجت فى بلاد العرب تحت تأثير جاهلى – حيث كان كثير من العرب الجاهليين نصارى – وكان كثير من هؤلاء النصارى قسيسين ورهبانا .

وجولدزيهر يستند الى ماتقرره النصرانية من ايثار الفقر والفقراء على الغنى والأغنياء – فيزعم أن ماورد فى الحديث النبوى من هذا المعنى مستمد من النصرانية ، وهذا يسلم بطبيعة الحال أن الفقر وهو من أخص خصائص الحياة الروحية الإسلامية إنما يرد إلى مصدر نصرانى ، وتلدكه يرى أن لباس الصوف نصرانى – وكذلك مايصطنعه الصوفية من صمت وذكر فإنه عند نيكلسون مأخوذ عن النصرانية (١)

إلا أنا نرى حيال هذا الأثر أنه ليس صحيحا أن نوقف التصوف الإسلامى على المسيحية ورهبانها وترد كل فكرة فيه اليها ، وإنما نقول إن كان للمسيحية تأثير على التصوف الإسلامى فإنه أثره يظهر على التصوف الفلسفى منه – وتأثيره كان فى تطوره وانحرافه أكثر مما كان سبباً فى ظهوره ونشأته (٢)

أثر المصدر الأفلاطونى اليونانى:

عرف المسلمون الفكر اليونانى الافلاطونى أثر حركة الترجمة التى ازدهرت بدءاً من القرن الثانى الهجرى ولذلك ذهب بعض الباحثين من الأوربيين – أنه مادامت الكلمة قد استمدت من كلمة « سوفيا » اليونانية – فهذا يدل على أثر الفلسفة اليونانية فى رجالها – وأن هؤلاء الصوفية إنما كانوا تلامذه للأفلاطونية المحدثة وبخاصة غنوصها العنيف الذى استتر فيه حين نقل الى العالم الإسلامى فى كل الغنوصات الشرقية – كما ذهب «مركس» الى القول بأن التصوف الإسلامى يعود كله إلى كتابات « ديونيسيوس »

(١) الدكتور مصطفى حلمى – الحياة الروحية فى الإسلام ص ٥٤
(٢) الدكتور عبد الفتاح احمد محمود ص ٥٧ مقدمة تحقيق أصول الملامنية وغلطات الصوفية

ويخصص « نيكلسون » المسألة ويرى أن التصوف من ناحيته الثيوسوفية أى المتصلة بالمعرفة – هو وليد الفلسفة اليونانية (١) إلا أنا نقول لهؤلاء وغيرهم أن التصوف السنى برىء من تهمة التأثر بالفلسفة فهو وإن كان هناك أثر فإنما يكون للتصوف الفلسفى الذى يحمل طابع الابتداع والتغالى والبعد عن الحقيقة .

بخلاف الطابع السنى الذى يحمل طابع الاستقامة والحفاظ على كل الأوامر الشرعية كما أنه إن كان هناك من أثر فى الجانب المعرفى فى نشأة التصوف فإنما يكون تأثيره فى تطوره وانحرافه فى الجانب المعرفى عن طريق الاسلام الأمر الذى حاربه المسلمون وعارضوا التصوف كله من أجله .

(١) الدكتور على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ٤٦

أثر التصوف الهندى والفارسى :

يرى البيرونى أن ديانات الهند القديمة - وخاصة - السمنية والبراهمة كانت مزدهرة فى بلاد خراسان وفارس والعراق الى حدود الشام - ويذكر أن صوامع بوذية كانت مزدهرة فى مدينه بلخ - فكأن اليهودية والأديان الهندية القديمة الأخرى بقيت متناثرة فى بعض أجزاء فارس وأثرت الأفكار اليهودية والهندية فى خفية وسرت بالديانات فى بعض عناصر التصوف (١)

كان من الطبيعى أن يحدث هناك أحتكاك بين تلك الديانات وبين الثقافة الإسلامية بوجه عام - وأن نلمح مظاهر التأثير والتأثر متبادلة بين تلك الثقافات ٠

وأياما كان الأمر فقد اعطانا البيرونى نماذج كثيرة لتأثر التصوف الإسلامى بالديانات الهندية منها القول « بأن المنصرف بكليته الى العلة الأولى متشبها بها على غاية امكانه ، يتحد بها عند ترك الوسائط وخلع العلائق والعوائق (٢) ومنها - القول بتناسخ الأرواح الذى يدور حول تردد النفوس الباقية فى الأجسام البالية وانتقالها من بدن الى بدن ومايترتب على ذلك من القول بالحلول (٣) ولذلك يقول الدكتور النشار « يرى البيرونى أن المسيحية والتصوف أخذت كلتاهما فكرة الحلول والاتحاد من الهنود - ولاينكر أحد أبدا أن فكرة الحلول والاتحاد منشؤها الهند - وأثبت البحث العلمى الأوربى الحديث أن جانبا كبيراً من تعاليم المسيحية فى الحلول إنما منشؤة هندى - ولاجدال

---

(١) الدكتور النشار نشأة الفكر جـ ٣ ص ٤٧

(٢) أبو الريحان البيرونى تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ص ٢٨ طبعة عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٣م

(٣) المصدر السابق ص ٣٩

أيضا فى أن يكون دخول فكرة الحلول والاتحاد الى التصوف عن طريق الهند فالفكرة غير اسلامية (١)

وبعد أن أبان البيرونى أن التناسخ هو من أخص خصائص الفلسفة الهندية نراه يقول « والى هذا المعنى ذهب من الصوفية من قال : إن الدنيا نفس نائمة والآخرة نفس يقظانة وهم يجيزون حلول الحق فى الأمكنة كالسماء والعرش ، والكرسى ، ومنهم من يجيزه فى جميع العالم والحيوان والشجر والجماد ويعبر عن ذلك بالظهور الكلى ، وإذا أجازوا ذلك فيه لم يك لحلول الأرواح بالتردد عندهم خطر (٢)

هذا وقد سار على نهج البيرونى طائفة من العلماء المستشرقين - أمثال « هورتن » « وبلوشيه » « وماسينيون » « وجولدزيهر » « وبراون » « وأوليرى » وغيرهم ويقول الدكتور محمد مصطفى حلمى « ولعل أهم العقائد الهندية التى لعبت دوراً هاماً فى التصوف الإسلامى هى عقيدة تناسخ الأرواح ، وماتسلم اليه من مذهب فى الحلول ووحدة الوجود ، وفى اتحاد العقل والعاقل والمعقول بحيث يصير هذا كله شيئاً واحداً » (٣)

---

(١) الدكتور النشار - نشأة الفكر جـ ٣ ص ٤٧
(٢) البيروني - تحقيق ماللهند ص ٣٩
(٣) الدكتور محمد مصطفى حلمى - الحياة الروحية فى الإسلام ص ٤٤

تعقيب

مما سبق يتضح لنا أن المستشرقين وغيرهم يحاولون أن ينزعوا من لتصوف الإسلامى زيه الطبيعى ومناخه الطيب وتربته الخصبة محاولين رده إلى الأثر اليونانى أو النصرانى أو الفارسى أو الهندى بدافع العصبية الدينية فهم يريدون جعل الإسلام خلو من كل فضل ومكرمة (١) ويصف الدكتور النشار منهج هؤلاء المستشرقين بالمنهج الأعرج الأعور السقيم – فلم ينظر هؤلاء الأمر الا بعين واحدة ملئت بالحقد على الإسلام واصالته كدين وفكر (٢)

ولهذا فإنا نقول لهؤلاء وغيرهم :

إن نشأة الحياة الروحية فى الإسلام كانت اسلامية ، وأن مصدر الزهد الذى جنح اليه الزهاد الأولون هو حياة النبى صلى الله عليه وسلم – كما أن منبع المصطلحات الصوفية والمذاهب التى أقيمت على أساس من الذوق والوجد هو الكتاب والسنة .

كما أن أثر هذه العوامل الخارجية قد فصل بين طابعين للتصوف طابع سنى ورث الاستقامة عن عصر الزهاد ثم دان بالخشوع وأخلص له وحارب كل خارج ومبتدع (٣) ولهذا يقول بعض الباحثين (٤) إن التصوف السنى برىء من تهمة التأثر بالفلسفة والذى يجب أن يتحمل هذا وحده هو التصوف المتفلسف الذى لايستطيع باحث أن ينكر رائحة الفلسفة وهى تفوح من بين نظرياته ، ومن أفواه أربابه بينما تشم أريج السنة تعطر الجو

---

(١) الدكتور ضياء الدين الكردى – نشأة التصوف الإسلامى وتطوره ص ٤٩

(٢) الدكتور النشار – نشأة الفكر جـ ٣ ص ١٦

(٣) الدكتور محمد مصطفى حلمى – الحياة الروحية ص ٤٧

(٤) الدكتور عبدالله الشاذلى – التصوف الإسلامى فى ميزان الكتاب والسنة جـ ١ ص ٣٥٦

من حولنا تتجول فى رياض التصوف المعتدل والسالك سبيل الشرع - كما يجب أن نتنبه إلى ماقاله البيرونى فى كتابه القيم « تحقيق ماللهند من مقولة » وهو ذلك الكتاب الذى يعد بحق أهم المراجع وأدقها وأوفاها فى ذلك الباب يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى ونحن نعلم أن البيرونى انتهى من وضع كتابه هذا فى الربع الأول من القرن الخامس للهجرة - أى فى وقت متأخر عن الوقت الذى كان قد بدأ يتحنث فيه النبى صلى الله عليه وسلم ويتقشف أصحابه ويكثر من بعدهم الزهاد والعباد (٢)

أما دعوى أن التصوف الإسلامى متأثر بأثر يونانى وخاصة فى الجانب المعرفى للتصوف - وكما يقول استاذنا الدكتور ضياء الكردى « وهذا أمر غير مقبول لأن المعرفة الصوفية لم تنشأ بعد ظهور الفلسفة اليونانية فى المجتمع الإسلامى ، وإنما نشأت المعرفة الصوفية قبل معرفة المسلمين للفلسفة اليونانية - ولم يكن نشأتها اتجاهاً نظريا تخيله بعض الفلاسفة بل واقعا عملياً يقع لهم فى أول سيرهم الى الله تعالى (٣) ذلك أن المعرفة كما يقول صاحب اللمع أول باد من بوادى الحقائق وحقيقة الحقوق ، أما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث سأل حارثة فقال : لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك : بأى شىء أجابه فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة : كيف يتزاورون وإلى أهل النار فى النار كيف يتعاوون - فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « عرفت فألزم » (٤)

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٥٧
(٢) الحياة الروحية ص ٤٧
(٣) الدكتور ضياء الدين الكردى - نشأة التصوف الإسلامى ص ٥٩
(٤) الطوسى - اللمع ص ٣٠

وعلى هذا فإن التصوف الإسلامى الصحيح لايمكن أن يتأثر بأى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم امتثالا لأمر الله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا » (١)

---

(١) سورة الحشر الآية رقم ٧

المبحث الرابع

عقيدة التوحيد ومنهج الصوفية

المنهج الصوفى

إن الذى يقوم بعرض المنهج على أذهان الناس وحياتهم هم صفوة من البشر يمتازون بنوع من العبقرية والتسامى الذهنى - لهذا فجاءت مناهجهم خاضعة لتصوراتهم فمثلا نجد أن الفلسفة تصطنع التأمل والنظر العقلى - بينما نجد أن التصوف يتخذ من العلم والعمل طريقا لمعرفة الله تعالى ٠

وفيما يتصل بالإنسان واعداده وتكوينه واسعادة يحاول أصحاب كل منهج صياغة منهج يراه ملائما لتحقيق قدر من اليقين النفسى والراحة القلبية والطمأنينة التى ينشدها الإنســان وإن الهدف الأســاسى من ذلك هو الأتصــال بالله ولايتــأتى ذلك إلا بالإيمان بالنص والعقل حسبما أمر الشارع الحكيم ونبه على ذلك القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

ذلك أن الأحاطة بعلوم الشريعة واحكامها لابد أن تسبق مرحلة العمل عند الصوفية فالمنهج الصوفى يقوم على العلم والعمل - والعلم فيه أيسر من العمل يقول فى ذلك الإمام الغزالى « ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تحلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله تعالى وكان العلم أيسر من العمل » (١)

فالتصوف يتخذ من العلم والتعبد طريقا إلى المعرفة يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى تعليقه على مادة تصوف بالنسخة العربية لدائرة المعارف الإسلامية موضحا الفرق

---

(١) الامام الغزالى - المنقذ من الضلال ص ١٣٧ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود

بين التصوف وعلم الكلام منهجاً « ... لما نشأ البحث فى العقائد والتماس الايمان من طريق النظر ... وتوجهت همم المسلمين الى التماس المعرفة على أساليب المتكلمين أصبح الكمال الدينى هو التماس الايمان والمعرفة عن طريق التصفية والمكاشفة وأصبح التصوف عبارة عن بيان هذه الطريقة وسلوكها وأصبح بذلك طريقا للمعرفة تقابل طريق أرباب النظر من المتكلمين (١)

وهذا هو ماجعل البعض يعبر عن التصوف بأنه كان ثورة على علم الكلام « لما قالوا به من منهج ذوقى فى المعرفة» (٢)

وهذا هو الأمر الذى جعل بعض مؤرخى الفرق والمقالات والعلوم يعدون الصوفية فرقة من الفرق الإسلامية .

وهذا هو الإمام الغزالى يقول فابتدرت لسلوك هذه الطرق واستقصاء ما عند هذه الفرق : مبتدئا بعلم الكلام ، ومثنيا بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعليم الباطنية ومربعاً بطريق الصوفية (٣)

كما يقول الإمام الرازى « اعلم أن أكثر من قص فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ - لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية وهذا طريق حسن » (٤)

ويشير الى ذلك أبو المظفر الأسفراينى وهو يذكر مفاخر أهل السنة ويذكر علومهم

---

(١) الدكتور يحيى هاشم فرعل - أصول التصوف الإسلامى ص ٢٧ مطبعة الجبلاوى - الطبعة الأولى سنه ١٩٨٣ - الدكتور التعنازانى -علم الكلام وبعض مشكلاته ص ٥٨ .

(٢) الدكتور أبو العلا عفيفى - التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ١٥٦ طبعة دار المعارف ١٩٦٣ .

(٣) الأمام الغزالى - المنفذ من الضلال ص ٩٤

(٤) الأمام الرازى - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٧٢ طبعة عام ١٩٣٨م

فيقول « وسادسها : علم التصوف – والاشارات ومالهم فيها من الدقائق والحقائق لم يكن قط لأحد من أهل البدعة فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة ، والحلاوة ، والسكينة ، والطمأنينة – وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمى من مشايخهم قريباً من الف – وجمع اشاراتهم واحاديثهم ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب الى شىء من بدع القدرية والروافض ، والخوارج ، وكيف يتصور فيهم من هؤلاء وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس والتوحيد بالخلق والمشيئة ، وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة والخلق والتقدير إلى أنفسهم وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد » (١)

وهذا هو الطوسى وهو من رجال التصوف يقول « وعندى والله أعلم ، أن أولى العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء ، هم المعتصمون بكتاب الله تعالى ، المجتهدون فى متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المقتدون بالصحابة والتابعين ، السالكون سبيل أو ليائه المتقين وعباده الصالحين هم ثلاثة أصناف : أصحاب الحديث ، والفقهاء والصوفية فهؤلاء هم الأصناف الثلاثة » (٢)

إلا أن تميز الصوفية عن الفرق فى المنهج وأنه قائم على القرآن والسنة يشير إلى ذلك قولهم – فقد قيل لأبى الحسن النورى رحمه الله : بم عرفت الله تعالى ؟ فقال : بالله قيل : فما بال العقل ؟ قال : العقل عاجز لايدل إلا على عاجز مثلة (٣)

كما فصل ذو النون القول فى المعرفة وأنواعها ودرجاتها وطرق الوصول اليها –

---

(١) أبو المظفر الاسفراينى – التبصير فى الدين ص ١١٨ مطبعة الأنوار ١٩٠ الطبعة الأولى .

(٢) الأمام الطوسى – اللمع ص ٢٢

(٣) المصدر السابق ص ٦٣

فمعرفة وحدانية الله طريقها الكتاب والسنة ومعرفة فرداتيته وقدرته طريقها الكشف ومعرفة اسم الله الأعظم هبة من الله (١)

وعلى هذا فنحن نرى كما رأى استاذنا الفاضل الدكتور عبدالله الشاذلى (٢) حيث يقول فكل الآيات والأحاديث قد وجهت الصوفية وفتحت نفوسهم إلى الآفاق العليا وانشرحت لها قلوبهم وهفت إلى ماتحمل من الفضائل والأذواق والبشرى والأسرار ، وحفزت هممهم الى السلوك المستقيم وركوب الطريق الوعر على درب الوصول والقرب بالإضافة إلى ماوجده رجال الطريق من آثار وكلمات تناثرت كالنجوم تضىء للسارى مواطن أقدامه ومواقع نظره وآمال قلبه كتلكم الأقوال الدالة على حسن الحال الصادرة من الصديق رضى الله عنه والمتعلقة بالتوحيد والتوكل والخوف والرجاء مما جعل أبو بكر الواسطى رحمه الله يقول أول لسان الصوفية ظهرت فى هذه الأمة على لسان أبى بكر رضى لله عنه اشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء (٣) ويقول الطوسى رحمه الله ولعمرى أنها اشارة جليلة لأهل التوحيد فى حقائق التفريد (٤) وكلمات عمر رضى الله عنه فى الفراسة وفى كثير من الفضائل دافعة للصوفية فى اقتفاء الأثر وتتبع النهج ولما فى نفوسهم من أثر عميق يقول الطوسى ولأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر رضى الله عنه بمعانى خص بذلك عمر رضى الله عنه من أختباره لبس المرقعة ، والخشونه ، وترك الشهوات واجتناب الشبهات ، واظهار الكرامات وقلة المبالاة

---

(١) أبو العلا عفيفى – النصوف ثوة روحية ص ٩٩

(٢) الدكتو عبدالله االشاذلى – التصوف الإسلامى فى ميزان الكتاب والسنه جـ ١ ص ٣٣٠

(٣) الطوسى – اللمع ١٦٨

(٤) المصدر السابق ص ١٦٩

من لأئمة الخلق عند انتصاب الحق ومحق الباطل ومساواة الأقارب والاباعد فى الحقوق ، والتمسك بالأشد من الطاعات ... (١) ٠

بالإضافة إلى هذا يقول بعض الباحثين أن الأتفاق قائم على أن التصوف طريقة أولا ومنذ النشأة لاتفاق أربابه فى الأصول وتشعبهم الى طرق باعتبار اسلوب التربية الذى يتبعه كل شيخ فى تسليك مريديه فالطرق تتبع القواعد والأوراد ، ثم لما دخل بين رجاله المدعون والمحرفون وأدخلوا تغييراً فى الأصول المتفق عليها ولدى جمهور المعتدلين السنيين طرأت كلمة الفرق (٢) والنتيجة التى نأخذها كما يقول استاذنا الدكتور عبدالله الشاذلى (٣) أن الهدف الأساسى من وراء ذلك كله أن التصوف قام على أساس سنى وقد سادته روح الجماعة الواحدة فى الأصول والسلوك وإن تنوعت الطرق لتنوع القواعد الصالحة لتنوع الطباع وقد ظلت تلك الحركة الأصلية تمثل الغالبية العظمى من السالكين أرباب القصد الحسن والعقيدة السلفية والسلوك المستقيم ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٧

(٢) الدكتور عبدالله الشاذلى – التصوف الإسلامى فى ميزان الكتاب والسنه جـ٢ ص ٣٢٥

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص٣٣١

أهل السنة والجماعة ومنهج الصوفية

تجمع كتب الفرق الإسلامية أن أهل السنة والجماعة هم أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم الذى أمر الله به فى كتابه الكريم وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

إلا أن البعض توهم أن هناك اختلافاً كائن بين ماعليه أهل السنة والجماعة والصوفية فى التبعية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

إلا أن التصوف السنى المعتدل قد بدأ كما يقول الدكتور النشار « باستنباط حياة زهدية من القرآن والسنة سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وسنة الصحابة ثم كان تصوفاً ثم أصبح التصوف علما يقابلة قواعد عملية ، وقد احتضن الأشاعرة مذهب الخلف منذ أبى حامد الغزالى التصوف وأصبح جزءاً من حياة الخلف ، ولكن السلف المتأخرين هاجموا هذا المنزع الأخلاقى عند الاشاعرة ، وانكروا أن يعتنق مذهب أهل السنة والجماعة صورة صوفية فى الحياة ، ولكنهم تناسوا أن التصوف عند أبى حامد الغزالى وعند المدرسة الأشعرية الكلامية إنما هو فى نطاق الكتاب والسنة » (١)

ولذلك فإن أصول المنهج السنى قد ثبتت فى القرن الأول والثانى على أيدى العلماء والزهاد وحينما جاء الصوفية فيما بعد وهالهم مارأوا من التفرق والاختلاف سلكوا مسلك اسلافهم من الزهاد فى عداد الفرق ومناهجها وأفكارها حيث كان جمهور الصوفية المعتدلين امتداداً صادقاً فى مجال علم الأصول للمذهب السنى أو السلفى الأول الذى ساد القرنين الأولين وظلوا محافظين على التمسك بالكتاب والسنة والأثر (٢)

---

(١) الدكتور على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٩ طبعه دار المعارف الطبعة الثامنة ١٩٨٠م .

(٢) الدكتور عبدالله الشاذلى – التصوف الإسلامى فى ميزان الكتاب والسنة جـ ٢ ص ٢٩٤

وقد نجم عن تمسك الصوفية بموقفهم هذا والتزامهم الطريق السنى فى العقائد أن قربت بينهم وبين السنيين من رجال الظاهر ومن الحنابلة . وكما فرضت عليهم طريقة معينة فى معالجة مسائل التوحيد -- فإن هذا الإتجاه قد جعلهم يتجهون دائما صوب رجال الحديث ويقتربون منهم ويخالطونهم أو يدينون بمذهبهم فى أصول الدين وفى الفقه - أى أنهم كانوا يجتمعون حول المذهب ونتيجة على قدر مالدية من سنة أو على حد استناده على السنن والآثار وهو أمر يبين مدى أحترام الصوفية لاتجاههم السنى فى كل صوب علمى وأصل دينى (١)

ولذلك نجد أن الأمام عبد القادر بن طاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩هـ يعد أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف وجعل الصنف السادس منهم الزها الصوفيه فيقول :

اعلموا أسعدكم الله - أن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس :-

١- صنف منهم احاطوا علما بأبواب التوحيد والنبوة واحكام الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، وشروط الاجتهاد ، والأمامة والزعامة ، وسلكوا فى هذا النوع من العلم طرق الصفاتية من المتكلمين الذين تبرءوا من التشبيه والتعطيل ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والنجارية وسائرأهل الأهوء الضالة .

٢- والصنف الثانى منهم : أئمة الفقة من فريقى الرأى والحديث من الذين اعتقدوا فى أصول الدين مذاهب الصفاتية فى الله وفى صفاته الأزلية، وتبرءوا من القدر والاعتزال ، وأثبتوا رؤية الله تعالى بالأبصار من غير تشبية ولاتعطيل وأثبتوا الحشر من القبور ، مع اثبات السؤال فى القبر ومع اثبات الحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٠٤

التى دون الشرك .

٣- والصنف الثالث منهم : هم الذين أحاطوا علما بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبى عليه السلام وميزوا بين الصحيح والسقيم منها وعرفوا أسباب الجرح والتعديل ولم يخلطوا علمهم بذلك بشىء من بدع أهل الأهواء الضالة .

٤- والصنف الرابع منهم : قوم أحاطوا علما بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف وجروا على سمت أئمة اللغة كالخليل والفراء وسيبويه .

٥- والصنف الخامس منهم : هم الذين أحاطوا علما بوجوه قراءات القرآن وبوجوه تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة.

٦- والصنف السادس منهم : الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا ، واختبروا فاعتبروا ، ورضوا بالمقدور ، وقنعوا بالميسور ، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسئول عن الخير والشر ، ومحاسب على مثاقيل الذر ، فأعدوا خير الأعداد ، ليوم المعاد وجرى كلامهم فى طريق العبارة والأشارة على سمت أهل الحديث دون من يشترى لهو الحديث ، لايعلمون الخير رياء ولايتركونه حياء ، دينهم التوحيد ، ونفى التشبية ، ومذهبهم التفويض الى الله تعالى ، والتوكل عليه والتسليم لأمره ، والقناعة بما رزقوا ، والأعراض عن الأعتراض عليه .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (١)

٧- والصنف السابع منهم : قوم مرابطون فى ثغور المسلمين فى وجوه الكفرة

---

(١) سورة الجمعة الآية رقم ٤

يجاهدون اعداء المسلمين ويحمون حمى المسلمين ويذبون عن حريمهم وديارهم ويظهرون فى ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة .

٨- والصنف الثامن منهم : عامة أهل البلدان التى غلب فيها شعار أهل السنة دون عامة البقاع التى ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة .

فهولاء أصناف السنة والجماعة ومجموعهم ، أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم (١) وإن الطريق الى المعرفة كما يقول استاذنا المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود إن تجارب الصالحين منذ عصور متطاولة دلت على أن تزكية النفس ، وتطهيرها والالتجاء الى الله والتقرب إليه كل ذلك يسمو بالانسان الى عالم من الروحانيات تستشرق فيه النفس الى الملأ الأعلى فتفيض عليها نفحات والهامات ومعرفة لاتتأتى لذوى النفوس المادية الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله ، ويقول طريق البصيرة طريق الصواب (٢) ويستدل على ذلك بما يقوله الأمام محمد عبده فى رسالة التوحيد فيقول الإمام أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مرتب الأنبياء ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظة من الأنس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لاتنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع فهم لذلك لايستبعدون شيئا بما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومن ذاق عرف ، ومن حرم أنحرف . ودليل صحة مايتحدثون به ،

---

(١) الأمام عبد القادر بن طاهر البغدادى - الفرق بين الفرق ص ٣١٣ - ٣١٨ تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد دار المعرفه للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .

(٢) الدكتور عبد الحليم محمود - ابحاث فى التصوف ص ٣٩٤ مع المنقذ من الضلال

وعنه ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألىء فى بصائرهم الى دعوة من يحف بهم الى مافيه خير العامة وترويج قلوب الخاصة .

ولايخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ماأسرع ماينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به ، ولايكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول ، وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة إجتثت من فوق الأرض مالها من قرار (١)

والبصيرة التى سببها تزكية النفس – وسيلة الى المعرفة لها ميدانها ... وتزكية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه فى الله – هو المقصود « بالذكر » وعر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصا لايمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التى يجب توافرها فى السالك ، علمنا أن النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان (٢)

ويصور لنا الأمام محمد عبده ذلك خير تصوير فيقول مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوته يعلو بعضها بعضا وأن الأدنى منها لايدرك ماعليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط ، بل لابد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، ولاشبهة فى أن من النظريات

---

(١) الأمام محمد عبده – رسالة التوحيد ص ٨٨ – تحقيق – الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد – مكتبة صبيح ١٩٦٦م

(٢) الدكتور عبد الحليم محمود – ابحاث فى التصوف ص ٣٩٧ مع المنقد من الضلال

عند بعض العقلاء ماهو بديهى عند من هو أرقى منه ، ولاتزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى مالايحضره العدد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس مايرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى إليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ماصار اليه ، كأنه من المعروف الذى لاينازع ، والطاهر الذى لايجاحد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم اليه ، ولايزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً فى كل أمة الى اليوم (١)

وهكذا نرى أن أهل التصوف وإن كانوا قلة إلا أنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع مثالى تسود بين أهله جو من الروحانية والرحمة والمحبة يجعل الناس جميعاً أخوانا متكاتفين متعاونين .

---

(١) الأمام محمد عبده رسالة التوحيد ص ٨٦

بقدر ماتصح عقيدة الإنسان بقدر ماتزكو أخلاقه وتستقيم أعماله لذا فإنا نشير إلى العقيدة عند الصوفية بصورة عامة يقول الإمام القشيرى اعلموا رحمكم الله ، أن شيوخ هذه الطائفه بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ، ولاتعطيل ، وعرفوا ماهو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم ، ولذلك قال سيد هذه الطريقه : الجنيد رحمه الله : التوحيد : افراد القدم من الحدث ، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولوائح الشواهد ٠

كما قال أبو محمد الجريرى رحمه الله « من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور فى مهواة من التلف يريد بذلك : أن من ركن الى التقليد ، ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط من سنن النجاة ووقع فى أسر الهلاك ، ومن تأمل الفاظهم وتصفح كلامهم : وجد فى مجموع أقاويلهم ومتفرقاتها مايثق بتأمله بأن القوم لم يقصروا فى التحقيق عن شأو ، ولم يعرجوا فى الطلب على تقصيرا (١)

هذا وقد سئل الجنيد عن التوحيد فقال : افراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته بأنه الواحد الذى لم يلد ولم يولد بنفى الأضداد والأنداد والاشباه وماعبد من دونه بلا تشبيه ولاتكييف ولاتصوير ، ولاتمثيل ، الها واحداً صمداً فرداً (٢) « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» (٣)

---

(١) الأمام القشيره - الرسالة جـ ١ ص ٣٤
(٢) الطوسى - اللمع ص ٤٩ -
(٣) سورة الشورى الآية رقم ١١

وتذكر هنا الأصول العامة للعقيدة عند الصوفية

ففى الألهيات يقول القشيرى : قال شيوخ هذه الطريقة - على مايدل عليه متفرقات كلامهم ومجموعاتها ومصنفاتهم فى التوحيد :

إن الحق ، سبحانه وتعالى موجود ، قديم ، واحد ، حكيم ، قادر ، عليم ، قاهر ، رحيم ، مريد ، سميع ، مجيد ، رفيع ، متكلم ، بصير ، متكبر ، قدير ، حى ، أحد باق صمد ، وأنه عالم بعلم ، قادر بقدرة ،مريد بارادة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، حى بحياة ، باق ببقاء .

وله يدان هما صفتان يخلق بهما مايشاء على التخصيص . وله الوجه ، وصفات ذاته مختصة بذاته ، لايقال هى هو ، ولاهى أغيار له ، بل هى صفات أزلية ونعوت سرمدية ، وأنه أحدى الذات ، ليس يشبه شيئا من المصنوعات ، ولايشبه شيء من المخلوقات ، ليس بجسم ، ولاجوهر ولاعرض ، ولاصفاته أعراض ، ولايتصور فى الأوهام ولايتقدر فى العقول ولا له جهة ولامكان ، ولايجرى عليه وقت وزمان ، ولايجوز فى وصفه زيادة ولانقصان ، ولايخصه هيئة وقد ، ولايقطعه نهاية وحد ، ولايحله حادث ، ولايحمله على الفعل باعث ، ولايجوز عليه لون ولاكون ، ولاينصره مدد ولاعون ، ولايخرج عن قدرته مقدور ، ولاينفك عن حكمة مفطور ، ولايعزب عن علمه معلوم ، ولاهو على فعله كيف يصنع ، ومايصنع ملوم ، لايقال له : أين ، ولاحيث ، ولاكيف ، ولايستفتح له وجود : فيقال : متى كان : ولاينتهى له بقاء : فيقال : استوفى الأجل والزمان . ولايقال : لم فعل مافعل ؛ إذ لاعلة لأفعاله ، ولايقال ماهو ، إذ لاجنس له فيتميز بأمارة عن أشكاله ، يرى لاعن مقابلة ويرى غيره لاعن مماقلة ، ويصنع لاعن مباشرة ومزاولة ، له الأسماء

الحسنى والصفات العلا ، يفعل مايريد ، ويذل لحكمه العبيد لايجرى فى سلطانه إلا مايشاء ، ولايحصل فى ملكه غير ماسبق به القضاء ، ماعلم أنه يكون من الحادث أراد أن يكون وماعلم أنه لايكون ، مما جاز أن يكون ، أراد أن لايكون ، خالق أكساب العباد: خيرها وشرها ، ومبدع مافى العالم من الأعيان والآثار. قلها وكثرها . ومرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه ٠

ومتعبد الآنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لاسبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه ، ومؤيد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة ، بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين والنكر ، وحافظ بيضة الإسلام بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بخلفائه الراشدين ، ثم حارس الحق وناصره بما يوضحه من حجج الدين على ألسنة أوليائه ، عصم الأمة الحنيفية عن الاجتماع على الضلالة وحسم مادة الباطل بما نصب من الدلالة وأنجز ماوعد من نصرة الدين بقوله ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (١) .

يقول القشيرى : فهذه فصول تشير إلى أصول المشايخ على وجه الإيجاز (٢) كما يشير الكلاباذى الى قول هؤلاء فى التوحيد فيقول :

أجمعت الصوفية على أن الله واحد ، فرد صمد ، قديم عالم ، قادر حى ، سميع بصير ، عزيز عظيم ، جميل ، كبير ، رحيم مريد ، جواد رؤوف ، حكيم متكلم ، متكبر ، جياد ، باق أول اله سيد ، مالك ، رب ، رحمن ، خالق ، رازق ، موصوف بكل ماوصف به

---

(١) سورة التوبة الآية رقم ٣٣

(٢) الأمام القشيرى - الرسالة جـ ١ ص ٥٧ - ٦٠

نفسه من صفاته ، مسمى بكل ماسمى به نفسه ، لم يزل قديماً بأسمائه وصفاته غير مشبه للخلق بوجه من الوجوه ، لاتشبه ذاته الذوات ولاصفته الصفات لايجرى عليه شيء من سمات المخلوقين الدالة على حدثهم لم يزل سابقا متقدما للمحدثات موجوداً قبل كل شيء لاقديم غيره ولا إله سواه ليس بجسم ولاشبح ، ولاصورة ، ولاشخص ، ولاجوهر ولاعرض٠

لا اجتماع له ولا افتراق ، لايتحرك ولايسكن ولاينقص ولايزداد ، ليس بذى أبعاض ولا أجزاء ، ولاجوارح ولا أعضاء ولابذى جهات ولا أماكن ... لايحويه مكان ، ولايجرى عليه زمان ولاتجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول فى الأماكن ، ولاتحيط به الأفكار ولاتحجبه الأستار ، ولاتدركه الأبصار ٠

ثم يفصل الكلابذى الكلام فى الصفات فيقول :

« أجمعو على أن لله صفات على الحقيقة هو بها موصوف : من العلم ، والقدرة ، والقوة والعز ، والحلم ، والحكمة، والكبرياء ، والجبروت ، والقدم ، والحياة والارادة والمشيئة والكلام ٠

وأنها ليست بأجسام ولا أعراض ، ولاجواهر كما أن ذاته ليس بجسم ولاعرض ولاجوهر ٠

وأن له سمعا ، وبصرا ، ووجها ويداً على الحقيقة ليس كالاسماع والأبصار والأيدى ٠

وأجمعو أنه ليست هى هو ولاغيره ٠

وليس معنى اثباتها له أنه محتاج اليها وأنه يفعل الأشياء بها ، ولكن معناها نفى أضدادها واثباتها فى أنفسها وأنها قائمات به ٠

لقد ورد فى القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الكثير من أسماء الله الحسنى مضافة بلفظ الرب فى سياق الذكر أو التسبيح أو بيان القدرة على الخلق أو غير ذلك من ذلك ماجاء فى قول الله تبارك وتعالى «واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله» (١) وقوله تعالى « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ... » (٢) وقوله تعالى « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ماأصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (٣) وقوله تعالى « تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام » (٤) وقوله تعالى « فسبح باسم ربك العظيم » (٥) وقوله تعالى « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » (٦) وقوله تعالى « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا » (٧) . وقوله تعالى « وذكر اسم ربه فصلى » (٨)

ونفس الأضافة وقعت فى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم مثل باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه وقوله صلى الله عليه وسلم باسمك نموت ونحيا وكما فهم المفسرون من تلك الإضافة أن الأسم عين المسمى – فهم شراح الحديث كذلك – فصرح القسطلانى أن البخارى قصد من وضع هذه الأحاديث فى باب السؤال باسماء الله والاستعاذة بها (٩)

(١) سورة المائدة الآية رقم ٤
(٢) سورة الحج الآية رقم ٢٨
(٣) سورة الحج الآية رقم ٣٥
(٤) سورة الرحمن الآية رقم ٧٨
(٥) سوة الواقعة الآية رقم ٧
(٦) سورة المزمل الآية رقم ٨
(٧) سورة الأنسان الآية رقم ٢٥
(٨) سورة الأعلى الآية رقم ١٥
(٩) الدكتور عبدالله الشاذلى –التصوف الإسلامى فى ميزان الكتاب والسنه جـ ٢ ص ٣٩٩

ولهذا فللمتصوفة شغف عظيم باسماء الله الحسنى وصفاته العليا يتلونها صباحا ومساءا ذكراً وعبادة ودعاء تقربا بها الى الله تعالى قال تعالى « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها »

والمريد وعامة الموحدين يتربون على هذه الأسماء من الصفات ، فإن كانت من صفات القهر خشع لها وخضع ، وإن كنت من صفات الرحمة تاب وأناب ، وإن كانت من صفات الجمال تأدب بها وتهذب ، وإن كانت من صفات الجلال تعزز بها وتهيب يقول الحكيم الترمذى « فمن المعرفة أن تعرفه بصفاته العلى وأسمائه الحسنى ، معرفة يستنير بها قلبك ، فإذا عرفته بذلك كان دعاؤك عن معرفة وحسن ظن به ... فما ظنك بعبد يعرف ربه بالكرم ثم يدعوه فيقول : ياكريم ، هل يخيب العارف له بذلك ، وقد عرفه معرفة يقين لامعرفة خبر وعلم » (١)

وهكذ نجد أن المريد يتخلق بهذه الأخلاق الكريمة ويتأدب بهذه الآداب الحسنة يقول الحكيم الترمذى فأخلاق الله تعالى أخرجها لعباده من باب القدرة ، وخزنها للعباد فى الخزائن وقسمها على أسمائه الحسنى وأمثاله العليا ، فإذا أراد بعبد خيراً منحه منها خلقا ليدر عليه من ذلك الخلق فعلا حسناً جميلا بهيا فجبله فى بطن أمه على ذلك الخلق ، وإذا لم يكن مجبولاً بذلك الخلق فى بطن أمه قدر له علم ذلك وحسنه وبهاءه ليتخلق العبد بذلك ، وتخلقه أن يحمل نفسه على فعل ذلك الخلق حتى تعتاد نفسه ذلك (٢)

وهكذا نجد أن العقيدة الإسلامية هى التى ينبثق منه نظام الحياة لأنها معنى قائم

---

(١) نقلا عن الدكتور عبد الفتاح بركه فى التصوف والأخلاق ص ١٨٨

(٢) المصدر السابق ص ١٨٩

بنفس المعتقد مرتبط بكيانه متضمن كل مضمامين الخير والفضيلة والتقدم ، لأنها الخاصية اللازمة لحياة الانسان ، ومن منطلق هذه العقيدة يكون سلوك المسلم فى الحياة باعتبارها دافعة الى السلوك الطيب والأخلاق الفاضله

ذلك أن تهذيب سلوك الأفرد عن طريق غرس العقيدة من أهم الأساليب التربوية التى أشاد بها العلماء وصدق ربنا تبارك وتعالى حيث يقول « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

المبحث الخامس

التصوف والسلوك

السلوك عند الصوفية

إن الدارس لعلم التصوف الإسلامي يعلم جيداً أن هذا العلم يجمع بين الجانب النظرى والعلمى وأن الجانب النظرى فيه لايقل أهمية عن الجانب العلمى – فهذا العلم يجمع بين النظر والعمل والتجربة النفسية والشعورية – والاستيقاظ الكامل مع الصدق والاخلاص اثناء الاداء العلمى للأحكام النظرية ذلك أن هذه الأحكام النظرية ترتبط آرتباطا وثيقاً بالدين وتعتمد على مصادره الرئيسية وهو القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

فقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم مثلا يحتذى وسلوكا يجب التأسى به فى كل أقواله وأفعاله وأعماله ذلك أنها كانت كلها لله رب العالمين قال تعالى « قل أننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا، وماكان من المشركين ، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين (١)

فهذه الحياة هى السلوك المضىء للصوفية وغيرهم ممن تمسكوا بما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك يقول السهروردى « الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية ، لايزال يصفى الأوقات عن شوائب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوب النفس ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره الى مولاه ، فبدوام الأفتقار ينقى من الكدر ، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفر منها إلى ربه (٢)

ذلك أن الغاية من اقامة هذا العلم هو حفظ الآداب وإقامة السلوك المستقيم – قال أبو حفص : التصوف كله آداب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب ، فمن لزم

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١٦١ – ١٦٢

(٢) السهروردى – عوارف المعارف ص ٥٩

آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول . وقال أيضا :حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » (١)

فالتصوف عمل مع اتباع وهو أيضا استقامة الأحوال مع الحق (٢) بهذه الأعتبارات وغيرها نعلم أن الهدف من هذا العلم هو الحفاظ على الحدود الشرعية والاستقامة عليها فى كل أحوالهم ، وأن ينقادوا الله انقياداً نظرياً فى فهم شريعته وعمليا فى تطبيقها .

لهذا يعتمد التصوف عند المتصوفة على قدر كبير من التربية النفسية – وعلى عمل شاق فى جهاد النفس ورياضتها على الأخلاق الصوفية الاسلامية ذلك أن الغاية التى يستهدفها من يريد التصوف غاية عليا وهدف اسمى يمكن التعبير عنه بأنه التقرب الى الله تعالى بقدر مايملك من الطاقة فهى تحتاج الى سعى مستمر وعمل دائب واقبال لايفتر على الله (٣)

ذلك أن أهتمام الصوفية بالتربية الشرعية ودراسة الدين فى مصادره الرئيسية قبل الانخراط فى السلوك والمجاهدة أدركنا أن عملية السلوك الصوفى أتم واكمل وأجدى وأنفع فى تثقيف الانسان وتهذيبه تهذيبا لاترقى اليه فلسفه تربوية ولانظرية أخلاقية تجعل معيارها العقل وميزانها الفكر – وبحلقات التربية الصوفية وتمامهاوفى بدايتها الشرعية ووسطها التهذيبى ، ونهايتها العرفانية الذوقية يكون الصوفى قد حصل على ثقافة مجتمعه المسلم – كما أنه ارتبط بدينه ارتباطا وثيقا من الجانب النظرى وتحقق

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥
(٢) الهجويرى – كشف المحجوب جـ ١ ص ٢٣٦ – طبع المجلس لأعلى للشئون الإسلامية .
(٣) الدكتور عبد الفتاح بركة– فى التصوف والأخلاق ص ١٢٠ – دار القلم – الكويت الطبعة الأولى ١٩٨٣م

باحكامه تحقيقا عمليا وسلوكيا – الى أن يذوق معارف وواردات تعتبر ارثا لهذه العلوم الشرعية ٠

ولتلك المسالك والقربات التى قام بها مخلصاً لله تعالى ، كما أنها منح ربانية وهبها الله له جزاء ماقام به من تجلية وتصفية ، وبقطع هذه الأطراف الثلاثة – الشرعية والتهذيبية السلوكية والعرفانية الذوقيه يكون الصوفى قد ارتبط من خلال التربية الصوفية بمجتمعة وثقافته ودينه ، واتصلت عمليته بالأخلاق اتصالا مباشرا ، كما كانت على قدر عال من المعرفة لاسيما البصرية ٠

بهذا يكون السالك قد شغل كل حياتة فى التربية – ابتداءا بالشرع وانتهاء فى السلوك بالتهذيب فتنتهى حياته وهى ملوءة بالنشاط مشغولة بالمهام الجسام ، مثمرة بأرقى أنوا ع الثمار والمعارف – ويتميز الصوفى ازاء هذا كله بأنه الذى ملأ جوانب حياته فى شبابها وكبرها بألوان النشاط التربوى النافع فى الدنيا والآخرة . وأنه الأنسان الذى ملأ زمام نفسه واستفاد من التربية علميا وسلوكيا وعرفانيا (١)

---

(١) الدكتور عبدالله الشاذلى – قواعد السلوك عند الصوفيه ص ٣٧

التهذيب النفسى والسلوكى

إن حاجة النفس الانسانية الى التهذيب والتزكية مثل حاجة العقل الى الصقل والتثقيف فإذا كان المراد أن تبلغ النفس درجه تحب فيه الخير وتستلذه وتكره فيها الشر وتزدريه فالأمر بحاجة الى مران يلتقى فيه الإنسان نحو الكمال والتوفيق الألهى لبلوغ المراد وبذلك يكون الإنسان ممن عنتهم الآية الكريمة « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » (١)

من هنا جاء اهتمام الصوفية بدراسةالنفس والآخلاق اهتماما بالغا ذلك أن تهذيب الأخلاق عمل نفسى باطنى يظهر أثره على أعمال الجوارح ولايفيد ذلك مالم يكن مبنيا على عقيدة سليمة وعلم صحيح فذلك ماأشار اليه الغزالى فى روضة الطالبين فيقول : اعلم أن السلوك هو تهذيب الأخلاق والأعمال وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن (٢)

بيد أن العقبات التى ينبغى على السالك أن يتجاوزها والتغلب عليها هوما يسمى عند الصوفية بالسلوك (٣)

وهذا العقبات انما كانت عقبات لأنها تجذب الإنسان الى الدنيا وتصرفة عن الآخرة وتزين له شهواتها وتنسيه ذكر ربه وأوامره ونواهيه - فعلى الانسان الذى يسلك هذا الطريق أن يتفرغ بوسع ارادته للتغلب على هذه العقبات ، ولن يستطيع أن يتغلب عليها جملة لأن بعضها أشد من بعض ولأن بعضها يختفى من وراء البعض وإنما عليه أن

---

(١) سورة الحجرات الآية رقم ٧ ، ٨

(٢) الأمام الغزالى روضة الطالبين ص ١١١

(٣) الدكتور عبد الفتاح بركة فى التصوف والأخلاق ص ١٣٢

يتغلب عليها شيئا فشيئاً ، فكلما أزال عقبة أو تجاوزها بدت له أخرى أشد وأقسى ، ومايزال كذلك حتى يصبح نقيا صافيا خالصاً يصلح لمقام القرب من الله يقول الغزالى «وانما سلوكه بقطع العقبات ولاعقبة على طريق الله تعالى الأصفات القلب التى سببها الالتفات الى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض ، والترتيب فى قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل » (١)

هذه العقبات تبدو فى صورتها الظاهرة فيما يربطه بهذه الدنيا من علاقات ، كالمال والجاه والشهوات التى تغرى بالمعصية .

وهذه العلاقات الظاهرة لايكفى للسالك قطعها بصورتها الظاهرة ، لأن قطعهابصورها الظاهرة لايكفى لسلوك الطريق الى الله بل لابد أن ينقطع أصلها فى النفس (٢) وهذا هو لب التهذيب النفسى والرياضة النفسية - فكم من متواضع بحسب الظاهر وقلبه يغلى بالكبر وحب الذات وازدراء الخلق ، وكم من سخى اليد بالمال ونفسه شحيحة بالخير مليئة بالحقد على أصحاب النعم إلى غير ذلك من النماذج والمطلوب من السالك كما يقول الدكتور بركه أن يتخذ الفعل الظاهر الحسن ذريعة لتربية الباطن عليه وطبعه بطابعةالى أن يصبح بعد ذلك انبعاثا من داخل النفس لافرضاً مفروضا عليها من الخارج (٣)

لهذا يجب أ نعلم أن مسألة التهذيب النفسى والتخلق بالأخلاق الفاضلة كان هدفاً فى حد زادته، وأن الصوفيه تحققوا بالفضيلة ، وقدموا الخير لمن عاشروهم - لأن الدين حث على ذلك سواء جرت الفضيلة عليهم ثوابا أم لا كما أنها فى الوقت نفسه كانت سبيلا

---

(١) الامام الغزالى احياء علوم جـ ٢ ص ٦٦ طبعه الحلبى ١٩٣٩م
(٢) الدكتور عبد الفتاح بركة فى التصوف والأخلاق ص ١٣٣
(٣) المصدر السابق ص ١٣٤

تقتضية غاية الكشف والمعرفة الذوقية – وهذه هى الغاية العليا التى لاتتحقق إلا بعد نقاء النفس والقلب وجلائهما .

ولشدة اهتمام التصوفية بهذة المسألة بشطريهما النفسى والأخلاقى اعتبر علم التصوف علم النفس الدينى كما أعتبر علم الأخلاق الأسلامية (١) ذلك أن الإسلام يعتمد فى توجيه السلوك البشرى على موضوعية الأخلاق وفطرية البصيرة التى يدركها فى بساطة ونقاء ، وفى الوقت نفسه تزود الإسان بالطاقة والقدرة وتنفخ فيه العزيمة والارادة والوفاء بمقتضياتها ، وتتدخل فى الأحوال التى تلتبس فيها الأمور على هذه البصيرة الفطرية أو التى تغلب فيها الشهوات والرغبات البشرية لتجلو وجه الحق وتبرز معالم الخير والبر .

ومن هذه الناحبة تلبس الأخلاق الإسلامية ثوبها الاسلامى وتصطبغ بالصيغة الإسلامية ويصبح الوفاء بمقتضياتها والتمسك بقواعدها مبنية على هذا المعنى القائم بالعقيدة ، بحيث يجد الإنسان فى امتثال هذه الأخلاق توافقا بينه وبين عقيدته ، يبعث فى نفسه الرضا والأطمئان والاستقرار (٢)

(١) الدكتور عبدالله الشاذلى – قواعد السلوك عند الصوفية ص ١٠٣ طبعة ١٩٨٠م

(٢) الدكتور عبد الفتاح بركه – فى التصوف والأخلاق ص ٣١

إن الإسلام يعتمد فى توجيه السلوك البشرى على موضوعية الأخلاق الإسلامية وفطرية البصيرة التى ندركها فى بساطه ونقاء - وفى الوقت نفسه تزود الأنسان بالطاقةوالقدرة وتنفخ فيه العزيمة والاراده للوفاء بمقتضياتها وتتدخل فى الأحوال التى تلتبس فيها الأمور على هذه البصيرة الفطرية ، أو التى تغلب فيها الشهوات والرغبات البشرية لتجلو وجه الحق وتبرز معالم الخير والبر.

وإذا كان التصوف الاسلامى سلوكا وعملاً - فإن هذا التصوف شأنه شأن كل جانب من جوانب الإسلام لهذا فإن الأخلاق فى التصوف عمل وممارسة وسلوك (١) ولذلك فقد جاءت أحاديث الصوفية عن الأخلاق إما بيانا لقيمة كل فضيلة من فضائل الأخلاق أو حثا على مجموعات من الفضائل مرتبط بعضها ببعض يقول أبو يزيد البسطامى «٢٦١هـ» (إذا صحبك انسان وأساء عشرتك فادخل عليه بحسن خلقك يطب عيشك ، وإذا أنعم عليك فابدأ بشكر الله) يقول أحد الصوفية « أنفع شىء للمريد صحبة الصالحين والاقتداء بهم فى أفعالهم وأخلاقهم » ويقول أبو الحسين النورى « ٢٩٥هـ » (ليس التصوف رسوما ولاعلوما ولكنه أخلاق) (٢)

وقال محمد بن على القصاب التصوف : أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام (٣)

وقال الجنيد : الصوفى كالأرض ، يطرح عليها كل قبيح ولايخرج منها إلا كل مليح

---

(١) الدكتور عبد الفتاح بركة فى التصوف والأخلاق ص ٦٦
(٢) الهجويرى - كشف المحجوب جـ ١ ص ٢٣٧
(٣) القشيرى - الرسالة جـ ٢ ص ٥٥٢

ويعتبر أبو بكر الكتانى المتوفى سنه ٢٣٣هـ صاحب أشهر تعريف يعبر عن ارتباط السلوك بالأخلاق إذ يقول فيه التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء ونظيره قول أبى محمد الجريرى حينما سئل عن التصوف فقال الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى (١)

وهكذا يتبين لنا من هذه التعريفات وغيرها أن سلوك الصوفى وأخلاقه أسمى الأخلاق الإنسانية وأرقاها لأنه يتجه بفكره وإحساسه الى الله تعالى فى كل لحظة من لحظات حياته وبذلك يقرب الى الله تعالى وينال رضاه فيسمو بالتعليم المقيم والتمتع بالمشاهدة قال تعالى « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظره (٢)

الصوفى يتخذ من القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة والقدوة له فى حركاته وسكناته وأفعاله ٠

والرسول صلى الله عليه وسلم بأوصافه الحسنة مثلا أعلى فى كل شىء كما حدث عن نفسه إذ سئل : من أدبك ؟ قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ٠

ومن هنا قالت : أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان خلقه القرآن ٠

فهذا الأدب من الله تعالى لنبية صلى الله عليه وسلم بالفطرةوالقرآن وهو الذى جعله مستحقا لقول الله تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم » (٣)

الصوفى ينظر الى هذه الحقيقة – فيعلم أنه إذا أراد الوصول فعلية السير على هذا

---

(١) الدكتور عبد الحليم محمود – المنفذ من الضلال مع ابحاث فى التصوف ص ١٧٧
(٢) سورة القيامة الآية رقم ٢٢ ، ٢٣
(٣) سورة القلم الآية رقم ٤

المنوال النبوى الكريم الذى رصده الله تعالى وأوقفه عليه فى قرآنه قال تعالى « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثير » (١)

ومن هنا كان على المتصوف متابعة السير على هذا المنهاج النبوى ليتسنى له الوصول الى غرضه السامى مع الأعتقاد السليم فى هذا الدين القيم والكتاب الذى « لايأتيه الباطل من بين يدية ولا من خلفه » (٢)

وعلى ذلك فالأخلاق عنصر لابد أن يشترك مع كافة العناصر الصوفية حتى يمكن أن تتكون منها حقيقة التصوف – فإذا خلا وقت من أوقات الصوفى من العنصر الأخلاقى كان ذلك ضعيفاً فى سلوكة وخروجاً على مقتضى الطريق الصوفى الذى يلزمة ، وهذه الأخلاق ليست عملا ظاهريا فحسب تتزين به الجوارح وتتصور فيه الأعمال ، ولكنه مسألة قلبية تظهر آثارها على الجوارح والأعمال – ولذلك كان حسن الخلق إنما يكون مع الله بأداء أوامره بلا رياء لأن الرياء أقبح صفة باطنية ، ولهذا فإن الصوفية لم يريدوا من علمهم ولامن أخلاق المريدين أن يكون رسما ظاهراً متكلفاً ، وإنما طلبوه علما وخلقا محموداً بلا تكلف وسبب٠

ولهذا فإن السالك من الناحية الخلقية رقيق لطيف محتمل مؤدب أب للغير وإبن للكبير يمنع شره ويتغاضى عن شرورهم ، وهو ليس جاهلاً كسولاً ثقيلا على مجتمعه ولكنه مثقف يستخدم علمه فيما ينفع ويعمل به فيما يفيد ويتعلم مايجهل وهو فوق ذلك متطلع إلى القرآن الكريم راجع إليه محتكم إليه فى كل مايجدُ له متخذاً إياه معياراً ثابتا له فى كل تصرفاته وشئونه مراعيا للآداب الشرعية فى كل أوقاته ٠

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ٢١

(٢) سورة فصلت الآية رقم ٤٢

ويبدو الصوفى بهذا السلوك إنساناً فاضلاً فى ذاته خيراً فى طبعه ، معطائاً متعاوناً محباً جواداً للأخرين ، يعطى رفده ولايتطلع إلى رفدهم ، وهو كذلك صديق ربانى سامى القلب ، نقى السريرة ، طاهر النفس ، عف الجوارح ، بصير الباطن فهو إنسان يحاول الكمال دائما فى القرب من الله والشوق إليه ويتعاون على البر والتقوى وهو صبورٌ ، غيورٌ على وطنه والمسلمين (١)

---

(١) الدكتور عبدالله الشاذلى – قواعد السلوك عند الصوفيه ص ١١٨

المعرفة هدف من أهداف السلوك

بقدر ماكانت تتسع أنظار الباحثين فى الأصول والمسائل الدينية بحثاً عقلياً يستند الى الدليل والبرهان – كانت أذواق الصوفيه الباحثين فى حركات القلوب والآخذين بتصفية النفوس تدق وتنضبط وتتضح معالمها وتتبين مسالكها وتتعين غايتها القصوى التى لم تصبح عبادة الله خوفا من ناره وطمعا فى جنته أو حب الله ابتغاء لوجهه الكريم كما كان ذلك شأنها عند زهاد القرتين الأولين للهجرة ، ولاتصفحا لبواطن القلوب ، والتماسا لآثار العبادة فى الأرواح كما كان ذلك هو الشأن فى القرنين الثالث والرابع للهجرة – وإنما أصبحت تلك الغاية شيئا آخر وراء هذا كله وأسمى منه أصبحت معرفة ذوقيه للذات الالهية ، واقراراً من جانب القلب بتوحيد هذه الذات وتحققا بالسعادة من طريق الايمان القلبى والمعرفة الذوقية (١)

وهذا هو الامام الغزالى لم يقف فى حياته الروحية عند الحد الذى يجعل من التصوف مجرد طريقة فى العبادة والخلوة والتقرب من الله ، والخضوع لأحكام الرياضة والمجاهدة فحسب ، وإنما هو يقبل هذا كله ، ويعمل به ويخضع نفسه له ويدعو غيره اليه، ثم هو يزيد على هذا كله شيئا آخر : ذلك أنه جعل من التصوف علما الى جانب مافيه من العمل ، وجعل منه بنوع خاص طريقاً الى المعرفة اليقينية ، وسبيلا الى السعادة الحقيقية ، وقد تلقى أهل السنة من المسلمين هذا التصوف بالقبول الحسن (٢)

إلا أن هناك عقبات تقف فى سبيل السالك الى هذه المعرفة وجعلها هدفاً من أهداف السلوك ولذلك يقول الدكتور غلاب غاية ماهنالك أن ذلك الناظر الى الفتوحات الربانية والمتطلع الى المعارف الدينية عليه مجهودات لابد من بذلها وفى طريقه عقبات لامناص من

---

(١) الدكتور محمد مصطفى حلمى – الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٥٠

(٢) المصدر السابق ص ١٥٢

تخطيها . وأمامه درجات لامفر من الصعود اليها ، وأول تلك المجهودات هو التخلص من عبودية البدن ، وأهم تلك العقبات ، عقبة الفتنة والغرور المنتهيين دائما بصاحبهما الى الهوى فى حضيض البعد عن الفيض الالهى والحرمان من الفتح الصمدانى وليس هناك نتيجة أسبق الى القلب من الظلام وامتلاء الفؤاد بالأسوداد (١) قال تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ماكاوا يكسبون » (٢) وقوله تعالى « ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور » (٣)

ودنيا تلك الدرجات كما يقول الدكتور غلاب « هى درجة الطاعة الرياضية والعبادة الصافية، ومحاولة القرب ، والاخلاص فى الحب وايقاظ القلب ليكشف مالم يحط به اللب ، وليعلم أن النور هو الذى يبدد الظلام ، وأن البرهان يتجه من الله نحو الآنام وأن قدسيته دليل وجود القريب والبعيد » (٤) « أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (٥) وقوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (٦) بعين البصيرة النورانية ، أو اللطيفة الربانية التى ليست فى حاجة الى الحس لترى . ولا الى الكواكب وأفلاكها ومحاورها لتتفكر ولا الى فعل الأسباب ومسبباتها لتتدبر ، ولا الى المنطق لتتعقل - ولا الى الفلسفة لتهتدى ، ولا الى العلم لتسترشد ، وانما هى تنغمس فى بحار الأنوار وتنغمر فى لجج الأبهار (٧)

---

(١) الدكتور محمد غلاب - المعرفة عند مفكرى الإسلام ص ٩٠
(٢) سوره المطففين الآية رقم ١٤
(٣) سورة النورالآية رقم ٤٠
(٤) الدكتور غلاب - المعرفة عند مفكرى الإسلام ص ٩٠
(٥) سوره فصلت الآية رقم ٥٣
(٦) سورة الذاريات الآية رقم ٢١
(٧) الدكتور غلاب المعرفة عند مفكرى الإسلام ص ٩٠

المبحث السادس

بعض مصطلحات الصوفية وأهم تجربتهم فيها

عن نظرة الفقهاء ويعتبرون أن الفقهاء يكتفون بالاحكام الظاهرة ، ويسمونها أحكام الشريعة ، أما المتصوفة فأنهم لايريدون أن يقفوا عند الأحكام الظاهرة ، وإنما يتناولونها بما تنطوى عليه من أحكام باطنه ويعتبرون الجمع بينهما تحققا بالشريعة ، ويرون أن التزام الشريعة من حيث مظاهرها لايكفى للوصول بهم إلى مطاوبهم ، لأن مطلوبهم وهو الله سبحانه هو الظاهر والباطن ، وهو رب الظواهر والسرائر ، ولذلك فينبغي أن يطلق لفظ الشريعة على مايعم أحكام الظاهر وأحكام الباطن (١)

ولذلك يقول الأمام الطوسي فى اللمع « إن علم الشريعة واحد وهو أسم واحد يجمع معنيين الرواية والدراية ، فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية الى الأعمال الظاهرة والباطنة ولا يجوز أن يجرد القول فى العلم : أنه ظاهر أو باطن ، لأن العلم متى كان فى القلب فهو باطن فيه إلى أن يجرى ويظهر على اللسان ، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر غير أنا نقول : إن العلم : ظاهر وباطن ، وهو علم الشريعة الذى يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة ، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة وهى العبادات والأحكام مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك فهذه العبادات . وأما الأحكام فالحدود ، والطلاق والعتاق والبيوع وغيرها ، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التى هى الأعضاء وهى الجوارح ، وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهى - المقامات والأحوال مثل : التصديق والإيمان واليقين والصدق والأخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة .... ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد ، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن

---

(١) الدكتور عبد الفتاح بركه - فى التصوف والاخلاق ص ٧٩ دار القلم الكويت الطبعة الأولى ١٩٨٣م

الرسول صلى الله عليه وسلم علمه من علمه وجهله من جهلة ، فإذا قلنا : علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التى هى على الجارحة الباطنة وهى القلب ، كما أنا إذا قلنا : علم الظاهر أشرنا الى علم الأعمال الظاهرة التى هى على الجوارح الظاهرة وهى الأعضاء .... ولايستغنى الظاهر عن الباطن ، ولا الباطن عن الظاهر (١)

وعلى هذا فإذا كان الفقهاء لايرون من الشريعة إلا العلم النظرى بالأحكام الظاهرة الخاصة بالسلوك الظاهرى على الأعضاء الظاهرة، فإن المتصوف يرى لهذه الأعضاء الظاهرة ومايجرى عليها من أعمال ظاهرة حقيقة باطنة يتم بها الأعمال الظاهرة معناها وتؤتى ثمارها، ولذلك فإنه إذا كان الفقيه ينظر إلى مايظهر من العمل ، فإن الصوفى ينظر الى التحقق بهذا العمل ظاهراً وباطناً سلوكا بالجوارح الظاهرة وذوقا بالجوارح الباطنة (٢)

ومن هنا يتبين لنا وكما رأى استاذنا الدكتور عبد الفتاح بركه أنه لاوجه لدعوى المدعين اسقاط التكليف الظاهرة باعتبار أن المقصود هو الحقيقة من هذه التكاليف وهو مايكون بالباطن وعلى الباطن - لأن مافى الباطن ثمرة لما فى الظاهر ومافى الظاهر لايتم بغير ثمرته الباطنة -- ومن تحقق بهما معا فقد وصل إلى حقيقة الشريعة - فلا تفريق عند محققى الصوفية بين ظاهر وباطن أوبين حقيقة وشريعة - ومن زعم أنه يجد فى باطنة مايخالف حكما شرعياً ظاهراً فهو فى وهم كبير (٣)

يقول أبو سعيد الجزار « كل باطن يخالف ظاهراً فهو باطل »

---

(١) الأمام - الطوسى - اللمع ص ٤٣ ، ٤٤

(٢) الدكتور عبد الفتاح بركه - فى التصوف والأخلاق ص ٨٠

(٣) المصدر السابق ص ٨١

ويقول الإمام الغزالى فى الأحياء : « من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة والباطن يخالف الظاهر - فهو الى الكفر أقرب وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة »

فالحقية لايمكن الحصول عليها بمخالفة الشريعة ، أو بمجرد التغاضى عنها لأنه لاتفريق بينهما ولأن كل منهما يكمل الآخر وهذه هى أقوال الصوفية أنفسهم فى ذلك يقول أبو على الروذبارى سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله : يصلون الى ترك الحركات من باب البر والتقرب الى الله عز وجل .

فقال : الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا - فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى ، واليه رجعوا فيه ، ولو بقيت الف عام لم أنقص من أعمل البر ذرة إلا أن يحال بى دونها .

وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثر الرسول عليه الصلاة والسلام وقال الجنيد أيضا : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لايقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة (١)

ومن هنا يصور لنا الأمام القشيرى هذا المعنى تصويراً جامعاً فيربط بين الحقيقة والشريعة ربطا عضوياً فيقول : الشريعة : أمر بالتزام العبودية . والحقيقة : مشاهدة الربوبية فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغيرمقبول فالشريعة جأت بتكليف الخلق - والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن تعبده . والحقيقة أن تشهده .

---

(١) الأمام القشيرى - الرسالة جـ ١ ص ١٣٣ - ١٣٤

والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر ويقول القشيرى سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمة الله يقول : قوله تعالى « اياك نعبد » حفظ للشريعة «واياك نستعين» اقرار بالحقيقة .

واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره .

والحقيقة أيضا ، شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أيضا وجبت بأمرة (١) ويزيد الصوفى الفقية أو الفقية الصوفى العز بن عبد السلام ٦٦٢هـ هذا الأمر وضوحاً فيقول الشريعة إقامة وظائف العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية فالشريعة مجاهدة ، والحقيقة مشاهدة ، ولاتباين بينهما ، إذ هما متلازمان إذ الطريق الى الله سبحانه وتعالى لها ظاهر وباطن - فظاهر الشريعة وباطنها الحقيقة - فبطون الحقيقة فى الشريعة كبطون الزبد فى لبنه (٢)

وعلى هذا فكل شريعة لاحقيقة لها فهى باطلة ، وكل حقيقة لاشريعة معها فهى باطلة وعلي هذا فالمراد من الحقيقة والشريعة إقامة العبودية الخالصة لله تعالى ومن هنا فإن نشير إلى :

العبودية :

بات واضحا أن الشريعة أمر بالتزام العبودية الخالصة لله تعالى ، وأن الشريعة مؤيدة بالحقيقة فهى متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر .

فالشريعة أن تعبد الله تعالى مخلصاً لهذا فإن التوحيد والدعوة الى عبادة الله وحده ونبذما عداه من المعبودات هو المحور الأساسى فى كل الأديان السماوية التى أنزلها الله

(١) الأمام القشيرى - الرسالة جـ ١ ص ٢٩٦

(٢) الدكتور يحيى هاشم فرغل - أصول التصوف الإسلامى ص ١٦٥ مطبعة الجبلاوى - الطبعة الأولى ١٩٨٣ م

تعالى لهداية البشر فما من نبى أو رسول إلا دعا إلى عبادة الله وحده قال تعالى « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (١) وقال تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (٢) يقول الأمام بن كثير فى تفسير هذه الآية فكل نبى بعثة الله يدعو الى عبادة الله وحده لاشريك له والفطرة شاهدة بذلك (٣)

ويقول شارح الطحاوية اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق وأول مقام يقول فيه السالك الى الله تعالى » (٤)

فالتوحيد جوهر الإسلام وروحه وعقيدته ومحور عبادته المنوعه ، ومبدأ التوحيد يسرى فى تعاليمه كافة سريان الماء فى النبات أو الأعصاب فى البدن – هذا وقد وضح القرآن الكريم حقيقته وبسط فكرته وناقش ماقد يعرض له أو يعارضه – فالتوحيد فى الإسلام أصرح وأكمل ماأسسه دين فى قلوب بنيه فقد فطر البشر جميعا بطابع العبودية له وحده وانتزاع كل شعور يتجه بالمرء الى تقديس كائن ما هنا أو هنالك كل ذلك من عناوين الأسلام الأولى وليس من ارشاداته الثانوية أبداً قال تعالى « إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » (٥)

وعلى هذا فإذا عرف الصوفى الحق بأن الله وحده صاحب الوجود الحق وأن ماعداه

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٣٦
(٢) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٥
(٣) الأمام بن كثير – تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ١٧٦
(٤) الأمام على ابن أبى العز الحنفى شرح الطحاوية ص ٢٢ تحقيق احمد محمد شاكر – مطبوعات جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ
(٥) سورة المائدة الآية رقم ٧٢

ليس إلا فيض رحمته ونعمة خلقه ومظهر قدرته وهيمنته - فليس بجانب وجود الله الحق وجود ، وكل ماعداه فهو له مملوك - من أجل ذلك كان هذا النظام السارى فى الكون ، وكان كل شىء فيه على ماقدر له من تدبير وترتيب ، لاتفلت شارده ، ولا تضطرب واردة ، ولايشذ غائب ، ذل كل شىء لعزه ، وخضع كل سلطان لسطوته وانقاد كل عظيم لأمره قال تعالى « وعنت الوجوه للحى القيوم » (١)

وماظهر فى هذا الكون على قلوب العباد من العظمة والقدرة لايبلغ كنه ماهو حق الله تعالى - قال تعالى « وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضتة يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » (٢)

إذا تحقق المتصوف بهذه الحقيقة التى لاتبلغ مقدار عظمة الله ، ثم نظر الى نفسه من خلال هذا الكون الخاضع لمالك الملك ورب الملكوت فرأى نفسه بالقياس الى هذا الكون فماذا يرى ؟ وماذا يمكن له أن يدعى لنفسه فى هذا الملك ؟ وهل هو إلا ذرة من ذراته تدور عليه أحكم سيده ومولاه ، وتسرى عليه أقداره وقضاياه ، إن الحقيقة تنطق أن هذا الأنسان وكل مايحيط به مملوك لله على الحقيقة مملوك بحق الخلق والايحاد ، مملوك بحق التدبير والتقدير مملوك بحق الربوبية والالوهية وسواء عرف الأنسان ذلك أو لم يعرفه فإن ذلك واقع الأمر والحقيقة الثابته التى لايثبتها اعتراف ولايدفعها انكار (٣)

ولذلك يقول الأمام القشيرى : سمعث الاستاذ أبا على الدقاق يقول : أنت عبد من أنت فى رقة وأسره ، فإن كنت فى أسر نفسك فأنت عبد نفسك ، وإن كنت فى أسر دنياك

---

(١) سورة طه الاية رقم ١١١

(٢) سورة الزمر الاية رقم ٦٧

(٣) الدكتور عبد الفتاح بركة فى التصوف والأخلاق ص ٨٣ ، ٨٤

فى مدارج العبادة والقرب من الله تعالى .

وهذا المنهج كما يقول المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود قد جربه الصوفية فثبتت ثماره عن طريق التجربة - وجوهر الطريق الصوفى هو ماسماه الصوفية : المقامات والأحوال .

والمقامات هى المنازل الروحية التى يمر بها السالك الى لله ، فيقف فيه فترة من الزمن مجاهداً فى اطارها حتى يهىء الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق الى المنزل الثانى ، لكى يتدرج فى السمو الروحى من شريف الى أشرف ، ومن سام إلى أسمى ، وذلك كمنزل « التوبة » الذى يهىء الى منزل « الورع » ، ومنزل « الورع » يهيىء الى منزل « الزهد » وهكذا حتى يصل الإنسان إلى منزل الحب والى منزل الرضا .

وهذه المنازل لابد لها من جهاد وتزكية ، ولذلك يقولون عنها أنها مكتسبة أنها اجتهاد فى الطاعة ، ومواصلة فى التسامى فى تحقيق العبودية لله تعالى (١) وسوف نقصر حديثنا على بعض المقامات فقط : وذلك مثل مقام :

١ - *التوبة :*

إن القارىء لكتب الصوفية يجد أن الذين تحدثوا منهم عن المقامات إنما يبدأ بالتوبة لأن التوبة أول المقامات - ولايصح مقام من مقامات الصوفية بدونها - فهى أول مراحل الطريق - بل هى المدخل المفضى اليه - والقرين المتنقل فى مدارجه من البداية إلى النهاية - ويرى ابن عطاء الله السكندرى أن من علامات الوصول الى النهايات - وجود تصحيح البدايات - ويقول عليكم بتصحيح التوبة ، فإنها يبنى عليها مابعدها وتعود

(١) الدكتور عبد الحليم محمود - أبحاث فى التصوف مع المنقذ من الضلال ص ١٨٧

بركاتها على ماقبلها - وما من نظام إلا وهو مفتقر اليها ، ومازكت الأحوال ولاقبلت الأعمال - ولاثبتت مراتب الأنزال إلا بتصحيح التوبة (١) ويقول السهروردى : التوبة أصل كل مقام ، وقوام كل مقام ، ومفتاح كل حال ، وهى أول المقامات وهى بمثابة الأرض للبناء ، فمن لا أرض له لابناء له ومن لاتوبة له لاحال له ولامقام له (٢) وعلى هذا فالتوبة مطلوبه من السالك فى أى مقام مهما علت رتبة هذا المقام فى طريق السلوك .

وحقيقة التوبة فى اللغة : الرجوع - وفى الشرع : الرجوع عما كان مذموما فى الشرع الى ماهو محمود فيه .

ولقد أمر القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بالتوبة فى مواطن كثيرة نذكر منها قول الله تبارك وتعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » (٣)

ويلى هذه الآية الكريمة مايبين الطريق إلى المغفرة والرحمة يقول سبحانه وتعالى « وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون » (٤) أى ارجعوا الى الله بالتوبة واسلام الوجه له .

ولقد فتح الله باب التوبة تفضلا منه ورحمة يقول جل شأنه فى حديث قدسى وفى أسلوب كله رأفة « ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم »

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين

---

(١) الدكتور عبد الفتاح بركه فى التصوف والأخلاق ص ١٦١
(٢) السهروردى - عوارف المعارف ص ٤٢٨
(٣) سورة الزمر الآية رقم ٥٣
(٤) سورة الزمر الآية رقم ٥٤

فمنهم المبتدئون ، وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك ، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم . كما سئل الجنيد رحمه الله عن الزهد فقال : تخلى الأيدى من الاملاك وتخلى القلوب من الطمع .

وسئل سرى السقطى رحمه الله عن الزهد فقال : أن يخلو قلبه مما خلت منه يداه .

وفرقة منهم متحققون فى الزهد ، ووصفهم ما أجاب رويم بن احمد رحمه الله حين سئل عن الزهد فقال :

ترك حظوظ النفس من جميع مافى الدنيا ، فهذا زهد المتحققين ، لأن فى الزهد فى الدنيا حظا للنفس ، لما فى الزهد من الراحة والثناء والمحمدة ، واتخاذ الجاه عند الناس : فمن زهد بقلبه فى هذه الحظوظ فهو متحقق فى زهده (١)

وبعض الباحثين (٢) يرى أن المقصود غالبا من الزهد هو الزهد فيما دون الحرام ، ذلك أن الله تعالى زهد الخلق فى الدنيا بمثل قوله تعالى « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » (٣)

ومثل هذا الأطلاق يرى أن الزهد إنما يكون فى الحلال الموجود وأما الحرام والشبهة فتركة واجب .

وحقيقة الزهد تتعلق بما يكون فى القلب من الرغبة أو عدمها ثم يختلف الحال فى الظاهر تبعا لما يكون فى القلب .

---

(١) الطوسى - اللمع ص ٧٣

(٢) الدكتور عبد الفتاح بركه فى التصوف والأخلاق ص ١٧١

(٣) سورة النساء الاية رقم ٧٧

التوكل على الله تعالى :

إن التوكل على الله تعالى هو الشعور بهيمنة الله على الحياة وبأن حركاتها وسكناتها محكومة بحولة وقوته لايمكن أن تندمنه أو تبعد عنه .

واستقرار هذا الشهور فى القلب يجعل صلة الإنسان بربه عميقة وركونه اليه باديا (١) من أجل ذلك كثرت الأوامر فى الكتاب والسنة بالتوكل على الله عز وجل - لأن التوكل دلالة علم بالله وصفاته ومواينبغى له . . .

وفيه بصيرة من العبد بالحدود التى تعمل فى نطاقها قدرته - وبالمدى الواسع الذى تتصرف فيه الإرادة العليا والقدرة العليا .

والمتوكل بهذه اليقظة الفكرية والنفسية أهل لأن يظفر برعاية الله وتوفيقه ومحبته .

نذكر من هذه الآيات والأحاديث قوله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا » (٢) وقوله تعالى « واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه » (٣)

ويقول القشيرى أعلم أن التوكل محله القلب والحركة بالظاهر لاتنافى التوكل بالقلب بعد ماتحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن إتفق شىء فبتيسيره ثم استشهد على ذلك بالحديث الذى رواه بسنده عن أنس بن مالك قال : جاء رجل على ناقة له : فقال : يارسول الله : أدعها وأتوكل فقال : اعقلها وتوكل » (٤)

ومما لاجدال فيه أنه كلما ازداد العبد معرفة بربه وازداد يقينه بأن كل شىء فى هذا

---

(١) الشيخ محمد الغزالى - الجانب العاطف من الإسلام ص ٢٧٤

(٢) سورة الطلاق الآية رقم ٣

(٣) سورة هود الآية رقم ١٢٣

(٤) القشيرى - الرسالة جـ ١ ص ٤٦٧

الكون بتقدير الله تعالى وعلمه وارادته سهل عليه شأن التوكل ولذلك يقول السهروردى : التوكل : طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبراً راضيا موافقا للقدر (١) وسئل الجنيد على التوكل فقال : إعتماد القلب على الله تعالى (٢)

وعلى هذا فالتوكل جزء لايتجزأ من الإيمان والصورة المثلى فيه هى صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان امام المتوكلين ومن بعده الصحابة والتابعين الذى كانوا متوكلين امتثالا لأمر الله تعالى « إن الله يحب المتوكلين » .

الحال :

يقول الإمام القشيرى فى الرسالة : والحال عند القوم : معنى يرد على القلب ، من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ، ولا اكتساب لهم (٣)

ويقول الطوسى : وأما معنى الأحوال : فهو مايحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار .

وقد حكى عن الجنيد أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم (٤) وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات كالمقامات فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب (٥) ، وصاحب المقام ممكن من مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله .

وأشار قوم الى بقاء الأحوال ودوامها ، وقالوا : إنها إذا لم تدوم ولم تتوال فهى لوائح

---

(١) الطوسى - اللمع ص ٧٨
(٢) المصدر السابق نفس المكان
(٣) القشيرى - الرسالة جـ ١ ص ٢٣٦
(٤) الطوسى - اللمع ص ٦٦
(٥) القشيرى - الرسالة جـ ١ ص ٢٣٦

وبواده ، ولم يصل صاحبها بعد إلى الأحوال ، فإذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمى «حالا» (١)

ولكن لصاحب هذه الحال - المتقررة - أحوال هى طوارق لاتدوم ، تأتيه من فوق أحواله التى صارت دائمة له ، فإذا دامت هذه الطوارق واستقرت أرتقى الى أحوال أخرى فوق التى حصلت له .

ومقدورات الحق سبحانه من الألطاف ، لانهاية لها ، فلا معنى يوصل اليه إلا وفى مقدورة سبحانه ماهو فوقه يقدر أن يوصله اليه ، فالعبد أبداً فى أرتقاء أحواله .

وربما تعرض للسالك لوائح مما فوق الحال الذى هو فيه - وهذا ماسماه أبو على الدقاق « غينا » وذلك إذا ارتقى من حالة الى حالة أعلى مما كان فيها فربما حصل له ملاحظة الى ما ارتقى عنها فكان بعدها غينا بالأضافة الى ماحصل فيها - أخذا من قول النبى صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى حتى استغفر الله تعالى فى اليوم سبعين مرة » الحديث رواه مسلم واحمد والنسائى وأبو داود (٢)

وبهذا يتبين الفرق بين المقام والحال ، من ناحية الأكتساب وعدمه كما يتبين الفرق بين الحال والغين والطارق من ناحية الدوام الذى يصير حالاً وعدم الدوام الذى إذا نظرت فيه الى حال أقل سمى غينا ، وإذا نظرت منه الى حال أعلى سمى طارقا .

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٧
(٢) السابق جـ ١ ص ٢٣٨

الموافقه له واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم مع دوام ذكر الله تعالى ووجود حلاوة المناجاة لله عز وجل (١) .

الخوف :

إن الخوف من الله تعالى عاطفة تنبع من حسن معرفته وكمال العلم به فهو شعور واضح بجلال الخلاق العليم ، والخوف من الله عاطفة تدل على شرف النفس ويقظة الحس - إن الخوف من الله تعالى يدل على إيمان بالله عميق وأن ذلك الإيمان إيمان يقظ ولذلك نجد أن الحق تبارك وتعالى قد ذكر الخوف وقرنه بالإيمان قال تعالى « فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » (٢) وقوله تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » (٣) وقوله تعالى « يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » (٤)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأس الحكمة مخافة الله .

وقيل إن الله تعالى جمع للخائفين مافرقه على المؤمنين - وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان - فقال تعالى « هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » (٥)

وقال « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٦) وقال تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » (٧)

وقال سهل : كمال الإيمان العلم وكمال العلم بالخوف .

---

(١) الطوسى - اللمع ص ٨٦ ، ٨٧
(٢) سورة آل عمران الآية رقم ١٧٥
(٣) سورة الرحمن الآية رقم ٤٦
(٤) سورة النور الآية رقم ٣٧
(٥) سورة الأعراف الآية رقم ١٥٤
(٦) سورة فاطر الآية ٢٨
(٧) سورة البينه الآية رقم ٨

وقال أيضا : العلم كسب الإيمان والخوف كسب المعرفة (١)

وعلى هذا فالخوف من الله تعالى ركنا فى الإيمان به قال تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ... » (٢)

ويقول الشيخ محمد الغزال (٣) ويكاد الخوف وحده العامل الحاسم فى كثير من المواقف القلقة والعاصم المنجى عن ثوران بعض الغرائز العنيفة وجماحها الشديد .

سيما وقد نبهنا الى أن الخوف وليد المعرفة ، فكلما اتسعت معرفة المرء لله تعالى ازداد مهابة له وحذراً من مخالفته واكباراً لحقه .

وفى خوف الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه وفى تخويف المسلمين عامة من بطش الله وعذابه نقرأ قوله تعالى : قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ، لهم من فوقهم ظل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون » (٤)

هذا وقد تضمنت سنة الرسول صلى الله عليه وسلم نماذج انسانية لأثر هذا الخوف العالى فى تطهير السلوك الأنسانى وقيادته - إذا اضطرب نحو الصراط المستقيم .

الرجاء

يقول الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم « من كان يرجو القاء الله فإن أجل الله لآت

---

(١) السهروردى - عوارف المعارف ص ٤٤٨

(٢) سورة الأنفال الآية رقم ٢

(٣) الشيخ محمد الغزالى - الجانب العاطف فى الإسلام ص ٢٥٧

(٤) سورة الزمر الآية رقم ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

وهو السميع العليم » (١)

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية أى فى الدار الآخرة وعمل الصالحات ورجاما عند الله من الثواب الجزيل فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفوراً فإن ذلك كائن لامحالة لأنه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات (٢)

وعلى هذا فالرجاء كما يقول القشيرى : تعلق القلب بمحبوب سيحصل فى المستقبل وكما أن الخوف يقع فى مستقبل الزمان – فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل فى الأستقبال وبالرجاء عيش القلوب واستقلالها (٣)

وتكلموا فى الرجاء فقال : شاه الكرمانى : علامة الرجاء حسن الطاعة وقال ابن خبيق الرجاء ثلاثة : رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها

ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة

والثالث الرجل الكاذب يتمادى فى الذنوب ويقول أرجو المغفرة ، ومن عرف نفسه بالأساءة ينبغى أن يكون خوفه غالبا على رجائه (٤)

ولهذا يقول الطوسى إن الرجاء حال شريف (٥) يقول الحق تبارك وتعالى « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر » (٦)

وقال صلى الله عليه وسلم « لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا »

---

(١) سورة العنكبوت الآية رقم ٥
(٢) الأمام ابن كثير – التفسير العظيم جـ ٣ ص ٤٠٤
(٣) الأمام القشيرى الرسالة جـ ١ ص ٤٠٠
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٠١
(٥) الطوسى – اللمع ص ٩١
(٦) سورة الأحزاب الآية رقم ٢١

وقال بعضهم : الخوف والرجاء جناحا العمل لايطير إلا بهما .

وقال أبو بكر الوراق : الرجاء ترويح من الله تعالى لقلوب الخائفين ولولا ذلك لتلفت نفوسهم وذهلت عقولهم .

وعلى هذا فالرجاء فى ثواب الله وفى سعة رحمته لعبد مريد قد سمع من الله ذكر المنن فرجاه ، وعلم أن الكرم والفضل والجود من صفات الله فارتاح قلبه الى المرجو من كرمه وفضله .

أهم مراجع البحث

- القرآن الكريم

١- الأمام الحافظ ابن حجر العسقلانى - فتح البارى بشرح صحيح البخارى - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى محب الدين الخطيب دار المعرفة - بيروت لبنان .

٢- الامام ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - مطابع المختار الاسلام - مكتبة التراث دون تاريخ .

٣- الامام القشيرى - الرسالة القشيرية - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، د . محمود بن الشريف مطبعة حسان ١٩٧٢م .

٤- الأمام السهروردى - عوارف المعارف - الدار القومية العربية للطباعة ١٩٧٣م

٥- الأمام الطوسى - اللمع - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقى سرور - مطبعة حسان - دار الكتب الحديثة - ١٩٦٠م .

٦- الأمام الغزالى - احياء علوم الدين - طبعة الحلبى ١٩٣٩م .

٧- الأمام الغزالى - المنقذ من الضلال مع ابحاث فى التصوف - للدكتور عبد الحليم محمود مطبعة حسان - الطبعة الثامنة ١٩٧٤م

٨- الأمام أبو عبد الرحمن السلمى - أصول الملامتية وغلاطات الصوفية - تحقيق وتقديم الدكتور عبد الفتاح احمد الفاو - مطبعة الأرشاد ١٩٨٥م.

٩- الأمام محمد أبو بكر الكلاباذى - التعرف لمذهب أهل التصوف - طبعة عام ١٩٦٩م.

١٠- أبو نعيم الأصبهانى - حلية الأولياء - طبعة القاهرة ١٩٣٢م .

١١- الأمام - الهجويرى - كشف المحجوب - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .

١٢- أبو الريحان البيرونى - تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة أو مرذولة - طبعة عالم الكتب - بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

١٣- الأمام عبد القادر بن طاهر البغدادى - الفرق بين الفرق - تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان .

١٤- الأمام الرازى - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - تحقيق وتقديم الدكتور على سامى النشار - طبعة القاهرة ١٩٣٨م .

١٥- ابن خلدون - المقدمة - طبعة دار الشعب .

١٦- ابن سينا - الاشارات والشبيهات - القسم الرابع - تحقيق الدكتور سليمان دنيا دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٢م .

١٧- الأمام على ابن أبى العز الحنفى - شرح الطحاوية - تحقيق الدكتور احمد محمد شاكر مطبوعات جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

١٨- الأمام محمد عبده - رسالة التوحيد تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد طبعة ١٩٦٦م مكتبة صبيح .

١٩- الدكتور ابراهيم بيومى مدكور - فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق طبعة ١٩٧٦م دار المعارف بمصر .

٢٠- الدكتور على سامى النشار نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام دار المعارف بمصر الطبعة الثامنة .

٢١- الشيخ محمد الغزالى - الجانب العاطفى من الإسلام - بحث فى الخلق والسلوك والتصوف مطبعة حسان - دار الكتب الحديثه .

٢٢- الدكتور محمد مصطفى حلمى - الحياة الروحية فى الإسلام - الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

٢٣- الدكتور محمد غلاب - المعرفة عند مفكرى الإسلام - دار الجيل للطباعة ١٩٦٦ .

٢٤- الدكتور عبد الفتاح عبدالله بركة - فى التصوف والأخلاق - دار القلم - الكويت - الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

٢٥- الدكتور محمد ضياء الدين الكردى - نشأة التصوف الإسلامى - مطبعة السعاده ١٩٨٤م .

٢٦- الدكتور عبدالله يوسف الشاذلى - التصوف الإسلامى فى ميزان الكتاب والسنة دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٧- الدكتور عبدالله يوسف الشاذلى - قواعد السلوك عند الصوفيه - الجزء الأول ١٩٨٠م .

٢٨- الدكتور يحيى هاشم فوغل - أصول التصوف الإسلامى - مطبعة الجبلاوى الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

٢٩- الدكتور محمد جلال شرف - دراسات فى التصوف الاسلامى، - دار المعرفة الجامعية بالأسكندريه دون تاريخ .

٣٠- الدكتور أبو العلا عفيفى - التصوف الثورة الروحية فى الإسلام دار المعارف ١٩٦٣م .

الفهرس

الفهرس

الفهرس